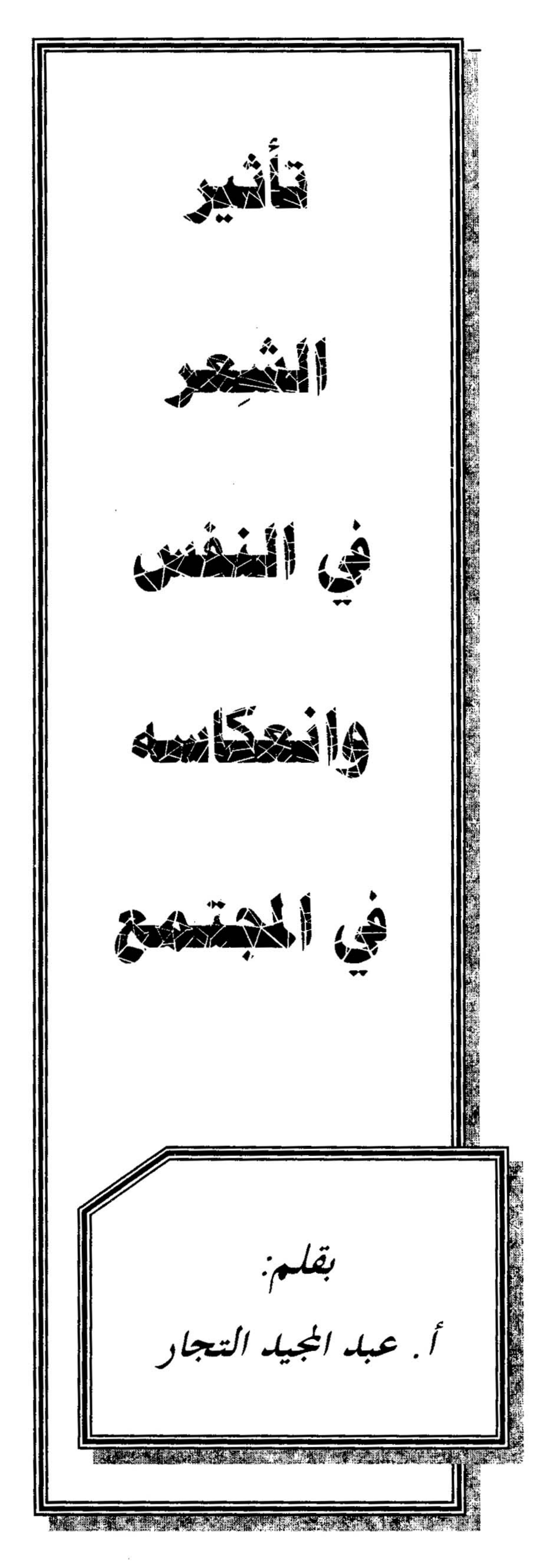


تأثير الشعر في النفس وانعكاسه في المجتمع

بقلم: أ. عبد المجيد التجار

لما كان الشعر صوت القلب ولسان العاطفة والترجمان الصادق الذي يعبّر عن خفايا النفس وخلجات الوجدان.. وبالتالي عن مقاصد الشاعر، كان الشاعر كالطائر يحلّق في كل جو، وكالرّسام الحاذق يرسم بريشته لوحات مختلفة تعبّر عن الفرح تارة وعن الألم تارة أخرى، فينعكس هذا التأثير على المجتمع وذلك حسب نوعية الشعر قومياً كان أم حماسياً، وفي الغزل كان أم في الفخر والوصف والرثاء إلى آخر ما هنالك من أبواب الشعر العديدة التي تؤثر تأثيراً عميقاً في النفس اللهم إذا كان الشاعر يعتمد على المعنى الرفيع والمشاعر المرهفة واللغة السليمة والمقاصد المقبولة.

والمطّلعون على حياة الشعراء وعلى ما خلفوه من دواوين يؤمنون بتأثير الشعر الأصيل في النفس ويوقنون أن مجالات الشاعر كثيرة في التأثير على السامع، فهو يختار منها ما يحمل السامع على الإيمان بقصد الشاعر. فكم أضرمت أبيات من الشعر نار الحرب وساقت القوم إلى ساح الوغى كما جرى في حرب البسوس التي دامت أربعين عاماً ما بين قبيلتي بكر وتغلب وذلك بسبب أبيات محرضة قالتها البسوس نتيجة ضرب ضرع ناقتها بسهم من قبل كليب فاستثارت حمية قومها عندما قالت:

ولا أنني أصبحت في دار منعة
لما ضيم زيد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غربة
متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي

وإذا انتقلنا إلى صورة أخرى من هذا التأثير لوجدناه واضحاً على الخلفاء والملوك والحكّام وغيرهم ممن حرّك الشعر وجدانهم وبسط أكفهم بالجود والعطاء. تروي الكتب أن الخليفة هارون الرشيد كان في بعض أسفاره يركب الناقة فطلع عليه أعرابي وأنشده:

آغيثا تحمل الناقة أم تحمل هارونا

أم الشمس أم البدر أم الدنيا أم الدينا

فسُرَّ الرشيد وأمر له فوراً بعشرة آلاف درهم وكان من الصعب أن يحصل هذا الأعرابي عليها لو تكلم ساعات وساعات.
ومثل آخر على هذا التأثير، إذا كنت في غاية السرور وسمعت من يودع جثمان أمه بالحزن والأسى قائلاً:

رأيت حنان الأم ينزل في القبر

فأحسست أن الروح تنزع من صدري

ألا يتبدد سرورك على الأقل إن لم تحزن مع هذا المحزون الذي أحسّ بأن روحه تطرح في القبر؟ وتنزع من الصدر؟
وعندما نسمع الشاعر وهو يحض على أعداد العدّة للقتال مستشهداً بالحمل الوديع الذي خلق الله له قروناً قوية ليدافع بها عن نفسه فيقول:

ارهب عدوك في الرباط تعده

والخيل رخ جاثم وسنونو

لو لم يكن حق الدفاع مقدساً

ما كان للحمل الوديع قرون

ألا يستثير الشاعر بقوله هذا خفظية السامع ويجعله يؤمن من الأعماق بلزوم إعداد العدّة للدفاع عن حقه؟
وإذا عدنا إلى الحض على العطاء ومساعدة الإنسان لأخيه الإنسان لوجدنا هذه الإثارة مقنعة إلى أبعد الحدود في قول الشاعر:

من حبة القمح اتخذ مثل الندى

يا من قبضت عن الندى يمناك

هي حبة أعطتك عشر سنابل

لتجود أنت بحبة لسواك

ولأنما الشق الذي في وسطها

لك قائل نصفي يخص أخاك

ومثل آخر على مقدرة الشعر لتغيير قناعات السامعين ما روي لنا عن قبيلة أنف الناقة التي كان يخجل أفرادها من نسبهم إليها حتى قال فيهم الحطيئة قصيدته التي منها قوله:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم

ومن يساوي بأنف الناقة الدنيا

فأصبحوا بعد هذا القول يفاخرون بما كانوا من قبل يخجلون.
والمثل عن قبيلة بني النمير العربية مشهور، فكم كانت هذه القبيلة تفخر بنسبها وتباهي به حتى كانت قصيدة جرير التي هجا بها بعض أفراد هذه القبيلة فقال ساخراً فيهم:

فغض الطرف أنك من نمير

فلا كعباً بلغت ولا كلابا

عندها أصبح أفراد هذه القبيلة إذا سئلوا عن نسبهم لا ينتسبون إلى النمير بل يتجاوزونه إلى أبيه عامر وهكذا فتأثير الشعر بلغ الحد الذي حمل السامع على استحسان القبيح وتقبيح المليح.
ومثل آخر ترويه لنا الكتب القديمة هو أن رجلاً قدم المدينة وهو يتاجر بخمر سود فبارت وكسدت، فوعد بعض الشعراء أن هو نظم له شعراً في مدح الخمار الأسود إن يكرمه فقال الأبيات المشهورة:

قل للمليحة في الخمار الأسود

ماذا فعلت بناسك متعبد

قـــد كـــان شـــمّر للـــصلاة إزاره

حتـــى قعـــدت لـــه بـــباب المـــسجد

فتسابق الناس على شرائها ونفذت.

وتـــربع الشعر على عرشه عندما بلغ الحـــد الـــذي لاقى فيه استحساناً عند الأنبياء والرسل، فمن المعروف أن النبيّ محمد ﷺ عفا عـــن كعـــب بن زهير الذي كان محكوماً عليه بالمـــوت وحباه وأكرمه عندما أنشده قصيدته المشهورة:

بانـــت ســـعاد فقلبـــي الـــيوم متـــبول

... ...

كمـــا عفـــا الرسول العظيم ذو القلب الـــرحيم عـــن أسرى وقعة حنين عندما أنشد كبيرهم قوله مخاطباً الرسول:

وامـــنن علينـــا يا رسول الله في حرم

فإنـــك المـــرء نـــرجوه وننتظـــر

أمـــنن علـــى نـــسوة قد كنت ترضعها

يـــا أرجـــح الناس حلماً حين يحتبر

فعفا الرسول عنهم وأطلق سراحهم.

ومـــثل آخـــر على تأثير الشعر لتغيير قـــناعات الـــناس، مـــا روي عن إعرابي فقير خامـــل الذكر تصحبه زوجته باستشافة شاعر كبيـــر فـــي عـــصره هـــو الأعشى فاستضافه الأعرابـــي وأكـــرمه علـــى فقـــره ولما عرف الأعـــشى بؤسه وسوء حاله قال فيه في سوق عكاظ:

أرقـــت ومـــا هـــذا الـــسهاد المؤرّق

ومـــا بـــين من سقم وما بي تعشق

تـــرى الجود يجري طاهراً فوق وجهه

كمـــا زان مـــتن الهـــند وإني رونق

فصار الناس يفدون إلى هذا الإعرابي يهنئونه على كرمه ويتابعون في طلب الخطوبة مـــن بـــناته فتحول بأبيات شاعر مشهور من رجل مغمور إلى وجيه في قومه.

وكم روت الكتب المنزلة ما كان عليه أخـــصام النبي محمد ﷺ الذين كانوا إذا أفحمهم بقوله وبيانه كان لا مفر لهم إلاّ إلى القول:

"إنـــه شـــاعر وهـــذا وسام زين صدر الشعر والشعراء".

والخلاصة:

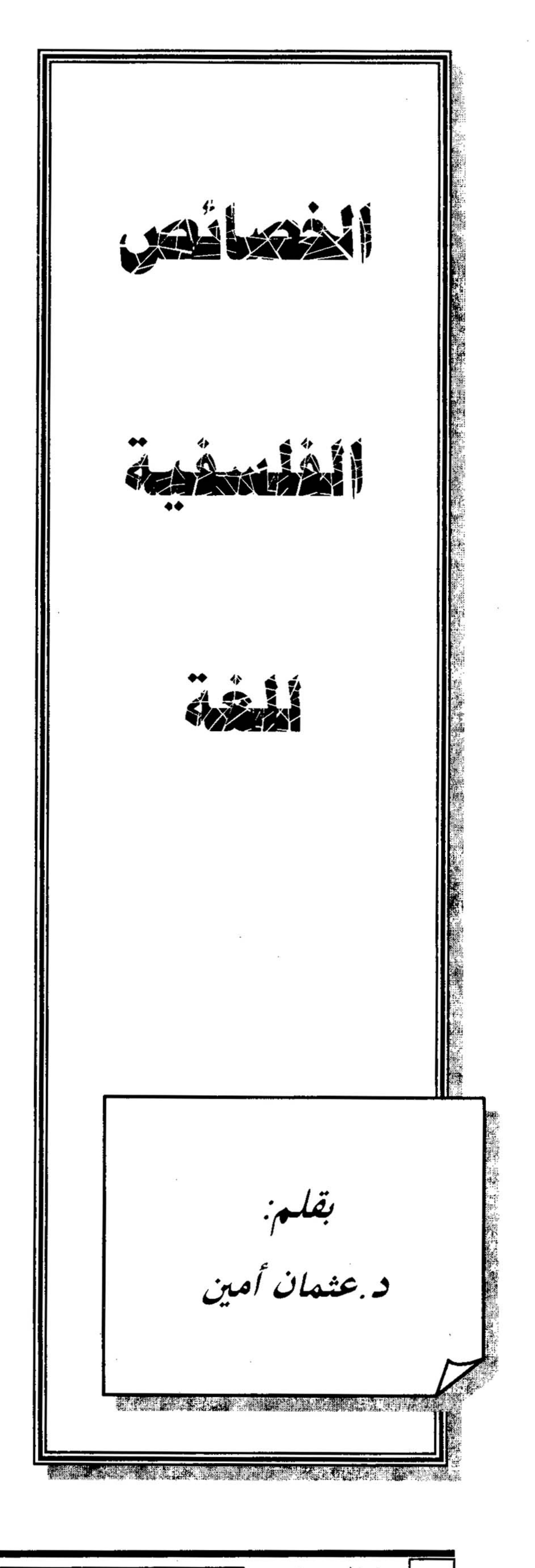
فـــإن كـــل هـــذا يـــدل على أن الشعر الأصـــيل المميـــز ببلاغته ورقّة لفظه وحسن ســـبكه واشـــتماله علـــى الـــنكات المستملحة والخـــصائص الـــبديعة تؤثر في النفس وتلعب بالعواطـــف وتـــسوق الـــسامع إلى حيث يريد الشاعر.

ففي شعر الحماسة تتوق نفس السامع إلـــى المعارك والقتال والثأر وفي الغزل، يعيش الـــسامع جـــواً كلّه رقّة وعاطفة ووجد، وفي الرثاء، يحزن ويجود بالدمع.

وفـــي شـــعر الفخر، يخيّل للسامع ن الـــشاعر يكـــاد يمتطي الكواكب والنجوم، وفي المـــديح كم تجود الأكف التي لم يتعود معظمها العطـــاء، وفي الاستعطاف، تتحرك الرحمة في نفـــس المخاطب الذي يتحول من منفذ للموت إلـــى حمل وديع رق قلبه وأشفق على من كان يريد أن ينزل به أشد العقاب.

وخلاصة الخلاصة:

فـــإن الحـــديث فـــي هـــذا الموضوع طـــويل وشـــيّق ولـــن يوفـــيه الكاتب حقّه في صفحات محدودة ولكن "ما لا يدرك كلّه لا يُترك جلّه".



من الأمور البينة بذاتها، الثابتة من شواهد الماضي وتجارب الحاضر، في الشرق والغرب على السواء، أن اتصال الناس بعضهم ببعض في المجتمع لا يتيسر حصوله بدون لغة مشتركة يستعملونها، فتكون مجلي لأفكارهم وترجماناً له. ولا خلاف اليوم على أن لغة قوم من الأقوام هي أقوى عوامل الوحدة والتضامن بينهم، حتى لقد ذهب عالم من علماء اللغات الغربيين إلى أن اللغة توشك أن تكون أعظم قوة تجعل من الفرد كائناً اجتماعيا وبين الفيلسوف الألماني (فشته) أن للغة أثراً بالغاً في تطور الشعوب فقال: "ان اللغة تلازم الفرد في حياته، وتمتد إلى أعماق كيانه، أو تنفذ إلى أخفى رغباته وخطراته. إنها تجعل من الأمة الناطقة بها كلاً متراصاً خاضعاً لقوانين، إنها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان".

ولست أعرف لغة من لغات العالم يصدق عليها قول الفيلسوف الألماني أكثر مما يصدق على لغتنا العربية: فما من شك في أن للغتنا العربية أثراً في تكوين عقليتنا وتدبير تفكيرنا وتصريف أفعالنا وهداية سلوكنا يفوق كل أثر سواه، وأننا إذا أردنا أن ندعم وحدتنا القومية فواجبنا أن نحافظ بكل ما في وسعنا على خصائص لغتنا وأن نستمسك في الوقت نفسه بالخصائص الفكرية الأصيلة التي تجعل لهذه اللغة فلسفة متميزة.

المثالية الغربية والمثالية العربية

وأول الخصائص التي تتميز بها اللغة العربية هي أنها تنحو نحواً مثالياً في التعبير لا

نظيـــر له في أي لغة من اللغات التي نعرفها: ففلـــسفة هذه اللغة تفترض لأول وهلة مثالية عميقة صريحة تحسب حساب الفكرة والمثال، وتضعهما في مكان الصدارة والاعتبار.

ومـــنذ أفلاطـــون ومفكـــرو الغـــرب يجاهـــدون، من وراء لغاتهم لرفع النقاب عن هـــذه المثالية، فلم يستطع استكشافها منهم إلاّ إثـــنان من كبار فلاسفتهم المحدثين: (ديكارت) فـــي القـــرن الـــسابع عشر، (كانط) في القرن الـــثامن عشر. وكان مؤدي مثاليتهما أنه يوجد إلـــى جانـــب صور الحس صور ومعان عقلية، وأن حقـــيقة العالم الخارجي – أو عالم الأعيان كمـــا يقـــول المتكلمون المسلمون – هو كونه مدركاً بالذهن الإنساني.

غيـــر أن هـــذا الاكتشاف الذي توصل إلـــيه الفيلـــسوفان الغربيان بعد جهد جهيد لم يثـــبت بعـــد في أذهان الناس ولا يزال موضع جـــدال وتفنيد: وآية ذلك ما لا نزال نسمعه من القـــضايا المعارضـــة الـــتي يدلـــي بها أنصار المـــذاهب الماديـــة والحـــسية والوجـــودية والوضـــعية، وكلها دالة على مغامرات الإنسان الممـــزق فـــي القـــرن العشرين، ومعبرة عن ضـــراوة خصومتها للاتجاهات الروحية عامة والمثالية خاصة.

ولإيضاح مثالية اللغة العربية نقول:

إن لغتـــنا في طبيعة تركيبها لا تحتاج الجمـــل الخبـــرية فيها إلى إثبات ما يسمى في اللغـــات الغربية فعل الكينونة، فنحن نقول في العـــربية على سبيل الأخبار (فلان شجاع) دون حاجـــة مـــثلهم إلى أن نقول (فلان هو شجاع) ونقـــول: كـــل إنسان يكون فان، أو كل إنسان يـــوجد فانـــياً، أو كل إنسان كائن فإن كما هو شـــأنهم فـــي تركيب كلامهم. وإذا قلنا مثلا أن الأمة العربية واحدة ثبت هذا المعنى في أذهاننا ثـــبوتا لا يحتاج معه إلى شيء من الخارج، لا فعل الكينونة ولا أي رمز آخر من رموز اللغة أو أي أمـــر من أمور الحس والفكرة المفهومة إليها حين يواجهه المعني، فإذا أراد أن يبرزها أو أن يؤكدها مثلها بلفظ كقوله: إنه هو الحق.

ومعنـــى هـــذا أن الإســـناد في اللغة العـــربية يكفـــي فـــيه إنشاء علاقة ذهنية بين موضـــوع ومحمول أو مسند إليه ومسند، دون حاجـــة إلـــى التـــصريح بهذه العلاقة نطقاً أو كتابة، في حين أن هذا الإسناد الذهني لا يكفي فـــي اللغات (الهندو – أور بية) إلاّ بوجود لفظ صـــريح مـــسموع أو مقـــروء يشير إلى هذه العلاقـــة فـــي كل مرة، وهو فعل الكينونة في اصـــطلاحهم. ولعل هذا الاضطراب في اللغات الغـــربية الحديـــثة سبب من أسباب ما اعتاده الناس في الغرب من التماسهم شهادة خارجية حـــسية لكـــل قضية عقلية تحتمل (الصدق أو الكذب) وكأن معيار الحق عندهم هو مطابقة ما فـــي الـــذهن لمـــا هو خارج الذهن، خلافاً لما يقضي به المنطق الأصيل للغة العربية.

شهادة الفكرة وشهادة الحس

وممـــا لـــه دلالة كبيرة في هذا المقام أننـــي عرضت مرة للمقارنة بين لغتنا وبعض اللغـــات الأوروبـــية، في محاضرة ألقيتها على جمهـــور فرنسي، وكان موضوعها: (ديكارت واللغة العربية) فخيل إليَّ حينئذ أن المستمعين قد بدأوا يقتنعون بما ذهبت إليه من أن فلسفة ديكارت هي في نظري أقرب الفلسفات الغربية

مطابقة لمنطق اللغة العربية غير أن شيئاً واحداً كان عندهم موضع استغراب، وهو أن تخلو اللغة العربية مما يسمونه فعل الكينونة ولكني بينت لهم فيما بينت أن دلالة الكينونة التي استغربوا خلو العربية منها هي على التحقيق الأمر الذي أراده ميزة فلسفية امتازت بها لغتنا على غيرها من اللغات: فالعربية ترى من نافلة القول أن نضطر إلى إثبات هذه الكينونة في كل قضية عقلية لكي نصدق بها. بل أكثر من هذا أن العربية تفترض ابتداء (دادلانيا) أن مجرد أخطار المعنى في الذهن ومجرد ثبوت الآنية كما يقول الفارابي وابن سينا - كاف وحده لإثبات هذا المعنى وبعبارة أخرى نقول أن اللغة تفترض دائماً أن شهادة الفكر أصدق من شهادة الحس، وبتعبير فلسفي شائع لدى فلاسفة العرب ومتكلميهم نقول أن العربية بطبيعة بنيتها وصياغتها تقرب أن الماهية متقدمة على الوجود - وغني عن البيان أن التقدم الذي يقصده فلاسفة العرب هو تقدم الرتبة والقيمة لا تقدم الزمان أو الوضع في المكان: وذلك هو الأمر الذي انتهت إليه المعرفة الإنسانية حينما ارتفعت إلى مقام العلم أو مقام الفلسفة.

جوانية اللغة العربية

واللغة العربية قد امتازت بخاصية أخرى فريدة قد خلت منها اللغات الأخرى التي نعرفها، وأعني بها خاصية ما قد سميته بالحضور (الجنوني) للأنية الواعية، أي إدراك معنى الأشياء بنوع من الكشف الداخلي، من غير حاجة إلى الوسائل الخارجية كاللفظ والإشارة وما إليها. ولبيان ذلك أقول أن (الذات العارفة) أو (الأنا المفكرة) ماثلة في كل قضية صيغت صياغة عربية. وحضورها حضور روحي داخلي، يسري في الضمائر والأفعال الداخلية في بنية الألفاظ، دون حاجة إلى إثباتها بالرموز والعلامات الظاهرة: ففي حين أن اللغات الغربية مثلاً تضطر غالباً إلى إثبات هذه (الانية) عن طريق ضمير المتكلم أو المخاطب أو الغائب، مصرحاً به في كل مرة، بحيث لا تفهم نسبة الفعل أو الفاعل بدون هذا التصريح، نجد العربية قادرة على التعبير عن الأنية تعبيراً جوانياً، لأن الفعل فيها لا يستقل بالدلالة بدون الذات، والذات متصلة دائماً بالفعل في نفس تركيبه الأصلي، ولا يوجد في العربية فعل مستقل عن ذاته كالفعل (المصدري) في اللغات الأوروبية الحديثة.

وكذلك الإضافة في اللغة العربية تتم بإنشاء علاقة ذهنية - وبالتالي جوانية - لا تحتاج إلى لفظ يشير إليها. مثال ذلك قولنا: (كلية الآداب) فهو كاف لإيقاع الإضافة بين (الآداب) و (الكلية) خلافاً للغات الأخرى التي تعمد إلى إثبات لفظ خاص يدل عليها. وفي هذا المعنى قال ابن خلدون (ولما كانت الملكات الحاصلة للعرب في ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي تعين الفاعل عن المفعول، والمجرور أعني المضاف، ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى. وليس يوجد ذلك إلاّ في لغة العرب. وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة، ولذلك نجد كلام

العجم في مخاطبتهم أطول مما نقدره بكلام العرب).

الصدارة للمعنى

واللغة العربية إذا كانت تعنى بالألفاظ فذلك من أجل المعاني، أي لكي يقع القول من نفس السامع موقعاً يهيئ له الحالة النفسية التي تحفزه إلى العمل. ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر ما لإعجاز القرآن من لفظه ومعانيه من قوة على استنهاض العزائم والسعي إلى بلوغ المطالب. ويطيب لي ها هنا أن أنقل عبارات من (الخصائص) لابن جنى واضحة الدلالة، قال في باب الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني: (فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة للمعاني وتنويه وتشريف) ثم قال: تأكيداً لرأيه وكأنه عالم من علماء عصرنا يدفع أوهام بعض المعترضين: (فكأن العرب إنما تحلي ألفاظها وتدبجها وتشيها وتزخرفها عناية بالمعاني التي وراءها، وتوصلاً بها إلى إدراك مطالبها.. وقد قال رسول الله ﷺ: ((إن من الشعر لحكمة وأن من البيان لسحرا)) فإذا كان رسول الله يعتقد هذا في ألفاظ هؤلاء القوم التي جعلت مصائد وإشراكاً للقلوب، وسبباً وسلماً إلى تحصيل المطلوب، عرف بذلك أن الألفاظ خدم للمعاني، والمخدوم أشرف من الخدم. والأخبار في التلطف بعذوبة الألفاظ إلى قضاء الحوائج أكثر من أن يوتى عليها)..

والحق فيما قال ابن جنى: فاللغة العربية من أكثر لغات الأرض دلالة معنوية. بل إن الكثير من ألفاظ العربية قد فقدت الدلالة الحسية: فالفعل (عقل) معناه (فهم) وهو مأخوذ من (عقل الناقة) أي ربطها، والأصل في معنى (الفصاحة) قولهم: (فصح اللبن) إذا ذهبت رغوته،ثم قيل (فصح) بمعنى (وضح) و (الرأي) أصله من (رأى) أي شهد بعينيه.

وفي اللغة العربية صيغ وأبنية وقوالب دالة على معانٍ وصفات وأحوال: فصيغة (فعلان) مثلاً تدل في الأغلب على الحركة والاضطراب، كالنزوان، والغليان والجيشان، والهيجان. ووزن (فعلان) يدل على صفات من أحوال، كالعطشان، والشبعان والريان، والغضبان. ووزن (فعللة) يدل على حكاية الأصوات، كالصرصرة، والقرقرة، والقعقعة، والخشخشة. ووزن (مفعال) يدل في الأغلب على عادات الاستكثار، نحو: مصدام، ومضياف، ومهذار، ومزواج، ومئناث.

وصيغ الأفعال وأوزانها في العربية عامل من عوامل ثروة اللغة وقدرتها على الدلالة على فروق وظلال تنضاف إلى المعنى الأصلي دون زيادة في اللفظ، ومع الاحتفاظ بطابع التركيز الذي تميزت به لغة القرآن فصيغة (فعل) ترد بمعنى المبالغة، وبمعنى النسبة وصيغة (فاعل) تدل على المبادلة، وصيغة (تفاعل) تدل على المشاركة ، وترد أيضاً بمعنى التظاهر بأمر الواقع، وصيغة (تفعل) ترد بمعنى التكلف، أو بمعنى أخذ الشيء أو تلقيه.

وخاصة أخرى تجعل اللغة العربية أكثر مرونة من غيرها من اللغات الحية

المعروفة، وهي أنها أكثر اللغات قبولاً للاشتقاق. باب واسع تستطيع به اللغة أن تؤدي معاني الحضارة الحديثة على اختلافها.

ويقوم الاشتقاق في العربية بدور لا يستهان به في المعنى الأصلي وتلوينه، إذ يكسبه خواص مختلفة من طبع وتطبع، ومبالغة وتعدية ومطاوعة، ومشاركة ومبادلة، ومما لا يتيسر التعبير عنه في اللغات الآرية ولا بألفاظ خاصة ذات معان مستقلة. وصيغ ألفاظ العربية تفرق تفرقه واضحة بين (الجواني) و (البراني) بين ما هو حركة في النفس وما هو حركة الجوارح العربية تفرق مثلاً بين (الكبر) و (التكبر)، و (العلم) و (الفقه) و (التفقه) وما إلى ذلك.

وقد التفت المستشرق الفرنسي (كارودو فو) إلى هذه الظاهرة، فلم يسعه إلاّ أن ينوه بها في كتابه عن (الغزالي) فقال: "لقد ميّز الغزالي بين الكبر الداخلي والكبر الخارجي"، الداخلي هو استعداد في النفس، والخارجي ناتج من أفعال الجوارح.

ولاحظ (كارادو فو) أيضاً أن هذه الفروق المعنوية الدقيقة التي تحملها ألفاظ اللغة العربية ليس من الميسور نقلها في لفظ واحد إلى اللغات الأخرى، وخلص من هذه الملاحظة إلى التنويه بما تنطوي عليه العربية من قدرة ذاتية على التحليل الفلسفي العميق (مادام أن أحداث تغيير طفيف في بنية اللفظ العربي يسمح لتلك اللغة بأن تميز بين الحالة النفسية وبين العادة التي تطابقها).

الحركة والقوة

وسمة أخرى تميزت بها اللغة العربية، وهي (الدينامية) أو الحركية: فاللغات الأخرى لا ترى مانعاً من بدء الكلمات بالحروف الساكنة. أما اللغة العربية ففلسفتها تمنع الناطق بها من النطق بحروف ساكنة، لأنها تفترض أن كل (قول) إذا كان قولاً جاداً ينبغي أن ينزل منزلة (الفعل) والفعل يقتضي الحركة، وأي قول لا يكون فيه حركية أو تهيؤ للفعل أهلها عن اللغو والهذر. فقد كان للكلام عند العرب سلطان وأي سلطان. وقيمة الكلمة في حياة العرب أعظم وأشد منها في الأمم الأخرى: ذلك أن القول والتفكير والعمل متلازمة في الحياة العربية الوعية، فقول العربي تفكيره، وتفكيره بدء لعمله. ولذلك اعتبره زهير الشاعر الجاهلي أحد شطري الإنسان، إذ قال: (لسان الفتى نصف ونصف فؤاده).

وحركية اللغة العربي وقوتها ظاهرتان لا يخلو من أن يلتفت إليهما الباحثون في علم اللغات الحديث، كما التفت إليهما شعراء العرب وكتّابهم قبل ذلك بقرون. ولم يبالغ أبو تمام في تقديره لدور الشعر العربي في خدمة المجتمع حين قال:

ولولا خلال سنها الشعر ما درى
بناة العلا من أين تأتى المكارم

تلك بعض سمات اللغة العربية: إعلاء من شأن الذهن، وتأكيد لقوة العقل، وصدارة للمعنى، ودعوة إلى الحركة، واتجاه إلى الفعل، وعزة العروبة في المحافظة على الميزات التي تميزت بها لغة العرب، إنها لغة ذات فلسفة متميزة، تربط القول بالفعل، وتوحد بين الفكر والعمل.





شعر: الدكتور عمر النص

إلى أينَ؟ صاحَتْ رِمالُ الطريق.. إلى أينَ تَمضي
أمازِلْتَ تَتْبَعُ وَمْضَ السراب على كُلِّ أَرْضِ
إلى أينَ؟ إني إِخالُ الوعودَ أَبَتْ أنْ تَحيينا
أهذا أسايَ أضاءَ الظنونَ فَعادتْ يقينا
تُراني لَمَحْتُ تُخومَ الغيوبِ فأشْفَقْتُ منْها
أمِ الشوْقُ يَصْرُخُ في ناظريَّ لأَسْأَلَ عَنْها
أأخطَأْتُ يَوماً؟ أعانَقْتُ نَجْماً بَعيداً بَعيدا
أأَرسَلْتُ طَرْفي يَرودُ السماءَ فخافَ الصُعودا
أَخَبَّأْتُ سِرّاً وراءَ السراب.. أَخَبَّأْتُ سِرّا
أغاصَ فمي في لُهاثِ الرَّبيعِ فأَلْفاهُ مُرّا
ولكنْ لماذا.. لماذا أُعيدُ الرؤى للحَياةِ
ولَمْ يَبْقَ بَعْدُ نُضوبِ الجِراحِ سوى ذكْرَياتِ
أنا العَبْدُ أَعْلَمُ أَنَّ الزمانَ يُريدُكَ عَبْدا
وأَنَّ الرجاءَ على ناظرَيْكَ يَزيدُكَ بُعْدا
كأنّي أُمَزِّقُ عندَ اللقاءِ حجابَ السنينِ
فيأْكُلُ هُدْبي صَقيعُ الفراغِ.. صَقيعُ اليقينِ
أضيعُ فأَحْلُمُ أَنّي أُريدُ اعْتناقَ الضِّياءِ
وأَحْلُمُ أَنّي أرى في يَدَيَّ بُروقَ السماءِ
فأسألُ أينَ سَريرُ النجومِ.. وأيْنَ البريقُ








وهَـــلْ غَلْغَلَـــتْ نجْمَـــةٌ فــي رُؤايَ فـــبانَ الطَـــريق
فتأْسِـــرُ عَيْنـــي ظـــلالُ الغُـــيومِ خِـــلالَ النخـــيلِ
فتَـــشْهَقُ رُوحـــي لـــصَوتِ الـــبِحار.. للُغْـــزِ الـــرَحيلِ
وأفْـــتَحُ صَـــدْري لَعـــلَّ الطَـــيوبَ تَمُـــرُّ بدَربـــي
فـــأَعْلَمُ أنَّ الـــورودَ العطـــاشَ ذوتْ فـــوْقَ هُدْبـــي
وأَحْـــسبُ أنِّـــي تَـــركْتُ الـــرَّبيعَ ورائـــي ميْـــتا
ولكـــنْ أُصـــيخُ إذا مـــا أشـــارَ فأَسْـــمَعُ صَـــوْتا
وأمْـــضي.. فأُزْهِـــقُ تِلـــكَ الـــرؤى فـــي عُـــروقِ الـــزمانِ
فـــأُدْرِكُ أنَّ وراءَ الـــدماءِ بقايـــا دُخـــانِ
وأرْنـــو.. فـــأَعْلَمُ أنَّ الطـــريقَ مَـــواتٌ مـــواتُ
وَأنَّـــا نَخـــافُ لأَنَّـــا حفـــاةٌ.. لأنَّـــا عُـــراةُ

٢

أَهـــذي يـــدي فـــي ضُـــلوعِ الـــسنينِ تَلُـــمُّ الجِـــراحا
وتَـــزْلَقُ فَـــوْقَ غَـــدٍ قَـــدْ أفـــاقَ فخـــافَ الـــصَّباحا
هُـــوَ القَلْـــبُ غُـــمَّ عَلَـــيْه الطَـــريقُ فَـــأَيْنَ المَفَـــرُّ
أمـــا زالَ فـــي الأُفْـــقِ دُرٌّ يُـــضيءُ.. أمـــا زالَ دُرُّ
دَعِ الـــصمتَ! إنـــي أخـــافُ العَـــياءَ يُكَـــبِّلُ رُوحـــي
فَأُشْـــفِقُ ممَّـــا تَـــرى مُقْلَـــتايَ وراءَ الـــسفوحِ
فَكَـــمْ سَـــحَّ غَـــيْمٌ غَـــداةَ الـــرحيلِ.. وكَـــمْ عَـــنَّ بَـــرْقُ
ولكـــنْ أشـــاحَ جَبـــينُ التُـــراب.. فَلَـــمْ يُـــرْوَ عِـــرقُ
ألَـــسْتَ تَـــرى! إنَّهـــا قَفْـــرَةٌ شـــابَ فـــيها ارتيابـــي







فأَوْشَكْتُ أَلْمحُ فَوْقَ الرمالِ سرابَ السراب
وأَيْنَ النِّهايَةُ؟ إنِّي أُحسُّ زَمانيَ نَهْرا
يَعودُ إلى البَحْرِ بَعدَ الضياعِ فَيُصبِحُ بَحْرا
وأَيْنَ تُرى كانَ هذا الشراعُ وأَيْنَ استَقرّا
وفي أيِّ أرضٍ أرادَ الرُسُوَّ فَلَمْ يَرَ بَرّا
أُسائِلُ لَيْلي: إلى أيِّ بابٍ تُرى فاءَ ظَنِّي
إلى أيِّ بابٍ.. إلى أيِّ صَدْرٍ.. إلى أيِّ جَفْنِ
وأرْتابُ منهُ فأَدْعو غَدي مِنْ رِحابِ الغُيوبِ
فألْمَحُهُ في بُروقِ الدُّجى.. في لُهاثِ الدُّروبِ
ويَرنُو إليَّ خلالَ السماءِ.. خلالَ السكونِ
خلالَ صُراخِ العُيونِ الظماءِ.. خلالَ الظُنونِ
وأُنفِقُ عُمْري أصيدُ الرؤى عَلَّها أنْ تُضيئا
وأسألُ أَيْنَ تُرى غائبٌ خِلْتُهُ لَنْ يَجيئا
أكانَ غَدي نَبأً في الزمانِ.. أكانَ اختيارا
أكانَ هُنا في انتظارِ النَّهارِ فخافَ النَهارا
كأنِّي أُحسُّ بهِ في الضُلوعِ يُلَمْلِمُ شَكّا
فأحلُمُ أنِّي أَهُدُّ الشُموسَ لأَبْتَني مُلْكا

٣

تُرى هَلْ أخافُ اقترابَ الشتاءِ.. تُرى هَلْ أخافُ
حَصاديَ شابَ فَسَلْ ساعِدَيَّ أحانَ القِطافُ
ألَمْ نَرَ شَيْئاً وراءَ السَرابِ فَخِلْناهُ دَرْبا

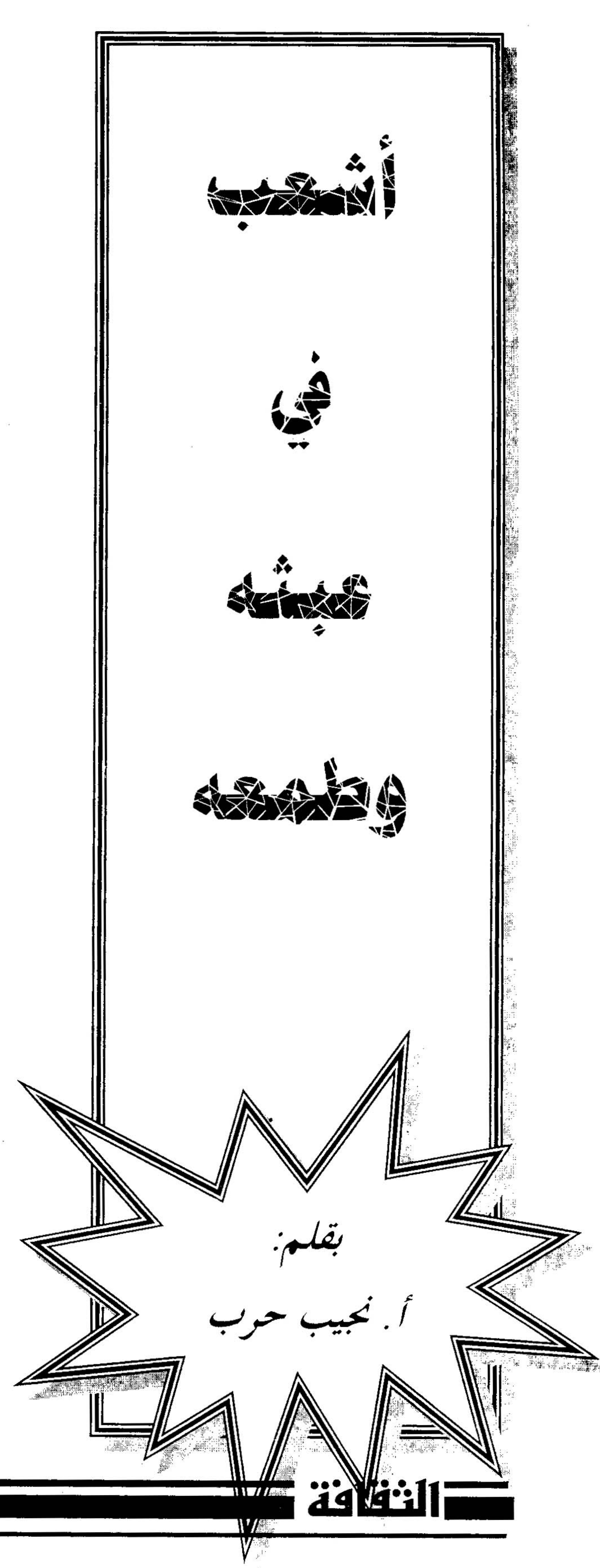






أَلَـمْ نَمْـشي فَـوْقَ رَمَـاد الـسنينِ.. أَلَـمْ نَـذْرُ حَـبًّا
أنــا الظـلُّ مَـرَّتْ عَلـيْهِ الظِّـلالُ فَـسَلْ عَـنْ عيائـي
أنــا الــوَهْمُ عَـبَّ دمـاءَ الـدُروب فَعَـبَّتْ دمائـي
إذا سـرْتُ غُـصَّتْ عُـيونُ الجـبالِ فَلَـمْ تُـبقِ مـاءَا
فَيَـسْأَلُ صَـوْتٌ أمازِلْـتَ فـي الأرْضِ تدْعـو الـسماءَا
تَـبوحُ المـصابيحُ فـي ناظِـرَيَّ فأُوقِـدُ نجْمـا
وتَهْـوي القُـيودُ فَـتَلْمَحُ عَيْـنايَ مـا كـانَ وَهْمـا
وَأُسْـكِتُ خَوفـي.. وأُسْـكِتُ شَـيْئاً أخـافُ افتِـضاحَهْ
وأحْمِـلُ قَلْـباً دَعـاهُ الـسرابُ فَـرَوَّى جِـراحَهْ
وأَنْظُـرُ حَوْلـي! هـذا هُـوَ الـنَّجْمُ يَهْـوي إلـيَّا
هُـوَ الحُلْـمُ يَنْثُـرُ مِلْـحَ الـبحارِ علـى راحتَـيَّا
فأَتْـرُكُ للـنَّجْمِ أنْ يـستَبينَ غُـبارَ الـسنينِ
وأسْـألُ عَيْنـيَّ أنْ تَـزْرَعاهُ وراءَ الجَبـينِ
وأَسْـمَعُ حَوْلـي حَنيـنَ القُلـوعِ تخـوضُ الـبِحارا
وتَفْـتَحُ أعْلامَهـا للبُـروقِ فَتَهْمـي شَـرارا
وأَحْلُـمُ بالبَحْـرِ.. بالـريحِ.. بالقَمَـرِ الـناحِلِ
وَأُوقِـدُ نـاري لعَـلَّ القُلـوعَ تَـرى سـاحلي
لَعَلِّـي أرى أيْـنَ تاهَـتْ خُطـايَ.. لعَلِّـيَ أَدْري
لَعَلِّـيَ أُحِـسُّ افتِـرارَ الـسَّماءِ إذا عَـنَّ فَجْـري
لَعَلِّـيَ أرى كـيفَ يَحْـيا صِـبايَ نقـيًّا.. سَـخيًّا
لَعَـلَّ غَـدي بَغْـتَةً يَـسْتَفيقُ.. فأَغْـدو نبِـيًّا



فكاهة الأمة عنوان لجميع أخلاقها وأسرار مزاجها، وإذا عرفنا ما هو الضحك عند كل أمة عرفنا ما هو الجد عندها. وما هي الحياة بعبارة أخرى. وربما كانت الدلالة الأولى على مزاج الفكاهة في كل أمة أنها تعرف عيوبها وتضحك منها وإنما لما هي عليه من مذهب السمت وللواجب نحتاج إلى ظاهرة فكرية وإلى منفذ نتخلص به من قيود السمت وأثقال الواجب، فلا نجد هذا الخلاص في منفذ أصلح من الضحك والفكاهة وأدعى منها إلى الراحة والإفضاء بما في دخيلة الضمير.

وقد مرت الحضارة الإسلامية في عصور بلغت فيها أوجها من الرقي بعد أن امتزج العرب بالفرس والهنود والأتراك وغيرهم من الأمم وكثرت الأموال وكثر الفراغ. فانصرف الناس إلى الحياة يتذوقون نعيمها. فرفهوا وأسرفوا في اللذة. ثم اصطبغت حياتهم باللهو والترف بما يضفون عليه من جمال مصنوع إلى جمال مطبوع. وتبع ذلك وجود عادات وتقاليد للطبقة المهذبة ومن تمسك بها عد ظريفاً. وراح الناس في تلك العصور يلتفتون إلى الظريف ويبالغون في تقديره والحفاوة به. وكتب الأدب العربي حافلة بنوادر الظرفاء وفي أحاديثهم وأفعالهم ومكانتهم لدى الطبقة الحاكمة يومئذ وربما كان أشعب – موضوع حديثنا هذا – أوفر الظرفاء حظاً بالعناية به. فقد زخرت كتب الأدب بنوادره وظرفه. ونسبت إليه كثيراً من القصص المضحكة. وأصبحت شخصيته بعد أن احتل مكاناً كبيراً في دور الخلفاء بما بلغه من ذكاء وسخرية. وبما اتسع به خياله من الحيلة واللهو وحلاوة الحديث. وألوان التسلية. شخصية رمزية للطمع والعبث. واللعبة الدائمة لدى الأمراء والحكام يمدحهم وينادمهم يروي لهم النوادر والنكت التي تدعو إلى الإفضاء بما في دخيلة ضمائرهم.

والمجال غير متسع للنوادر المنسوبة إلى أشعب حسبنا هذا القليل منها الآن.

فقد روى المدائني والهيثم بن عدي: أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك كان قد طلق امرأته (سعدة) لميلها عنه وسرعان ما تزوجت من غيره.. وشاقه الحنين إليها فأراد أن يسألها فاستدعى أشعب وعرض عليه أن يبلغ الرسالة ورآها أشعب فرصة – للمساومة فسأل الوليد عما يجزيه به على مهمته الخطرة.

قال الوليد:

- إن بلغت الرسالة إليها لك عندي عشرة آلاف درهم.
- عشرة آلاف..؟
- نعم. وتزيد إن جئت بخير..
- إذن أرني المال حتى أوقظ ذكائي برؤيته..

فدفع إليه الوليد (بدرة) الآلاف العشرة، فاحتملها أشعب واستعجل الوليد رسالته فإذا هو يلقي على سمعه هذه الأبيات:

أسعدة هل إليك لنا سبيل؟
وهل حتى القيامة من تلاق
نعم: ولعل دهرا أن يواتي
بموت من حليلك أو طلاق
فأصبح شامتا وتقر عيني
ويجمع شملنا بعد افتراق

- أهذه أمنياتك؟ أن يموت زوجها عنها أو يطلقها حتى تعود إليك؟ ما أصعبها أمنية وما أثقلها رسالة أكافأ عليها فقط بعشرة آلاف درهم.

ومضى أشعب إلى غايته. فلما أخبرت السيدة بقدومه أمرت ففرشوا لها مجلسها ثم أذنت له، فلما سألته ما يحمل؟ قال:

هي رسالة من الوليد.

فقالت:

- وما للوليد بنا حتى يراسلنا؟ فقد انقطع ما بيننا وصرنا إلى غيره فما له بنا؟
- سيدتي: ما على الرسول إلاّ البلاغ ولا عليك إلاّ أن تسمعي، فإن شئت قبلت ما يدعو إليه وإن شئت رددتها عليه وأنفه صاغر..
- إذن فهات ما (عندك).

فلما أنشدها قوله: أسعدة هل إليك لنا سبيل؟ قالت:

- لا والله ولا يكون ذلك أبداً..

ولما أنشدها الثاني:

نعم ولعل دهر أن يواتي
بموت من حليلك أو طلاق

فقالت:

- بل يكون الموت له هو..

فلما أنشدها الأخير: فأصبح شامتاً.. أسرعت تقول:

- بل تكون الشماتة به.

ثم اعتدلت في مجلسها وبان الغضب في وجهها واتجهت إلى أشعب تزمجر في وجهه وتقول:

- أنت أيها الخبيث الفاسق كيف طاوعتك نفسك على حمل رسالة كهذه إليّ؟ وأيم الله لأوذينك ولأجعلنك أمثولة ولأفعلن بك الأفاعيل..

ثم أشارت إلى خدمها:

- خذوا هذا الفاسق وأنزلوه حيث يلقى ما يستأهله.

وبينما الأيدي تتناوشه والشر يتطاير من كل العيون حوله، كانت صرخاته المفزوعة تدوي في كل المكان معلنة كل الحقيقة:

- سيدتي: إنها والله عشرة آلاف درهم أودعتها عند أمي وإن شئت فابعثي من يأخذها وخلصيني بجلدي.

قالت سعدى:

- مالـــي بطعامك الفاسد حاجة ولكن اختر ما بين الموت وبين أن تبلغه عني كما أبلغتني عنه.

وحتـــى فـــي هذه اللحظات القاسية لم تفارقه طباعه فرد يقول:

- وما تهب لي سيدتي إن فعلت؟

قالت:

- بساطي هذا الذي أجلس عليه الآن.

قال أشعب:

- وآخذه الساعة؟
- والساعة تأخذه.
- إذن فقومي عنه.

فتـــنحت سعدى عن بساطها وطواه ثم حمله، وانتصب بين يديها ثم طلب الرسالة فإذا هي تقول فيها له:

أتبكـــي علـــى سعدى وأنت أضعتها
وكـــنت كـــآت حـــتفه وهـــو طائع

ويـــا بعـــد مـــا تـــرجو وبعد نواله
لقـــد ذهـــبت سعدى فما أنت صانع

فأقـــبل أشعب حتى بلغ مجلس الوليد فأنـــشده البيتين ثم ارتمى على الأرض يحتضن البساط المطوى. وما راعه إلاّ والأمير يصرخ في وجهه ويصفعه:

- قتلتنـــي يـــا بن الفاعلة، والله لأنتقمن منها فـــيك. فاختر الساعة كيف تموت، إن شئت أن أدلـــيك مـــسكناً في بئر، أو أرميك على رأســـك مـــن أعلـــى القصر. أو أبتر بهذا السيف رأسك؟ اختر ما يحلو أيها الخبيث. اختر قبل ألاّ تستطيع أن تختار؟؟

وقـــبل أن تستقر الكلمات الطائرة على رأس من هي موجهة إليه كان الذكاء الأشعبي قـــد أنجـــد صاحبه، فرفع عينيه مبتسماً للأمير الثائر يقول:

- إنـــي علـــى ثقـــة من أن شيئاً من هذا لن يحدث لي.
- ولم؟ ومن يمنعك مني؟
- شـــيئان يمـــنعان منك: أولهما أنك لم تكن لتعذب عينين نظرتا إلى وجهها.. وثانيهما: أن خيـــراً مـــن قتلي أن تدعني أحمل إليها رداً يكـــون فـــيه انتقامك. وتكون لي عنه جائزة..

فتراضى الوليد وهو يتمتم:

- لـــم أكن لأعذب عينين نظرتا إلى سعدى.. وغداً سوف أنتقم..

وفـــي انتظار الغد، راح الخبيث الماهر يجمع جوائزه من أيد المجانين.

أنت بطال

ومن طريف نوادره الكاشفة عن روح أصـــيل فـــي الدعابـــة والعبث ما رواه صحب الأغانـــي بإسناده إلى إبراهيم بن المهدي نقلا عـــن ابـــن أشعب عن أبيه قال: يوماً ما: دعي المغـــنون ليحضروا مجلس الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكنت معهم عرف مقدار ما يظفرون بـــه من العطايا إذ اعتدل مزاج الوليد فأرضوه وأطربوه.

فقلـــت لمن جاء يدعو المغنين خذني معهم، فقال:

- لا. الدعـــوة موجهة إلى ذوي الصنعة وأنت بطال لا تدخل في جملتهم.

قـــال أشـــعب: - فقلت له والله إني لأحـــسن مـــنهم غـــناء وأرق منهم صوتاً وإن شـــئت أسمعتك. ثم اندفعت أغني وكان الرجل على ما يبدو فاسد الذوق فقال لي:

- إن غـــناءك حسن ولكني أخشى إن أدخلتك أن يصيبني شر.
- فقلـــت له: لا خوف عليك ولك مع هذا أن تقاسمني كل ما أحصل عليه.

فاطمأن الرجل وأشهد المغني على اتفاقي معه، ومضينا جميعاً حتى دخلنا مجلس الوليد ورأيته مضطرب المزاج منقبض النفس يغنيه المغنون من كل فن فلا يطرب ولا يتحرك فتسلل أحدهم واسمه (الأبجر) فاتصل من خارج المجلس بأحد خاصة الخدم يسأله عن سر وجوم الأمير هذا اليوم وعرف منه أن شراً واقع بين الوليد وبين زوجته لأنه عشق أختها واكتشفت خيانته فغاضبته وهو إلى أختها أميل وقد عزم على فراقها وحلف ألا يذكرها بمخاطبة ولا مراسلة، ومنذ نشب النزاع بينهما وهذه حاله..

فلما عرف (الأبجر) بحقيقة الأمر عاد فاتخذ مجلسه بين المغنين، فلما جاء دوره رفع الحانه يغني:

فإني لا أبالي وأبقني
اصعد باقي حبكم أم تصوبا
ألم تعلمي أني عزوف عن الهوى
إذا صاحبي من غير شيء تغضبا

فطرب الوليد وظهرت عليه راحة النفس لما مست الأغنية مشاعره، فقال للأبجر:

- أصبت والله ما في نفسي.

ثم أمر له بعشرة آلاف درهم، وأقبل على شرابه يعب حتى سكر، وانصرف الباقون دون أن يظفروا بشيء.

وشعر أشعب بعد ذهاب الأبجر أن رسول الأمير كان شؤماً عليه وربما لولا وجهه لظفر بالجائزة إن لم يكن للغناء فللعبث على الأقل ولهذا صمم على الإيقاع به. فلما أيقن بانفضاض المجلس وثب أمام الأمير وقال له:

- إني ألتمس من مولاي أن يأمر حجاب من يضربني مائة سوط..

فضحك من سكره وقال له:

- قبحك الله يا أشعب، يسألني الناس الجوائز وتسألني أنت من يضربك؟ وعلام تريد أن تضرب..؟

فأخبره بالقصة كاملة وباتفاقه مع رسوله أن يقاسمه كل ما حصل عليه. وأضاف قوله، ولما كان وجه هذا الرسول شؤماً ولم أظفر بخير فقد أردت أن أضرب مائة سوط ويضرب مائة سوط مثلها بعدي. لعل عبوس خلقته ينفرج. فضحك الأمير وقال:

- أعطوه مائة دينار وأعطو الرسول من مالنا خمسين ديناراً عوض نصيبه مما أخذه أشعب.

عضو في جماعة العبث

وكان أشعب عضواً في كل جماعة عبث ولو فلا انعقد مجلس لها إلاّ وكان أشعب من مقدمة المدعويين.. روى ابن زينج أن آبان بن عثمان كان أهزل الناس وأشدهم عبثاً. فبينما نحن ذات يوم في مجلسه ومعنا أشعب إذ أقبل أعرابي ومعه جمل. قال آبان:

- هذا الأعرابي من البادية ولعل هذه أول مرة يقدم فيها المدينة، فلنجعل عبث يومنا به وعليكم أن تدعوه إليّ وتعرفوه أنه مقبل على الأمير.

فوثب إليه أشعب يستوقفه ويقول له:

- هذا الأمير إبان بن عثمان يوعدك فادخل وسلم عليه..

فدخل الرجل وسلم، فرد الأمير المزعوم من أطراف أنفه، ثم سأله عن نسبه فانتسب الرجل وحدد قبيلته فاعتدل الأمير في جلسته ونشر البشاشة على وجهه وربت على كتف الأعرابي يقول له:

- حيّاك الله يا خالي، إن أمي منكم، اجلس، اجلس عزيزاً مكرماً.

فجلس الرجل، فمال عليه الأمير يجاذبه بعض الحديث، وبقية العصابة تلتزم الصمت والخضوع على نحو ما تقتضيه حضرة الأمراء. وتفرق الحديث حتى قال الأمير للرجل:

- كنت على أيام صغري في البادية أهوى ركوب الجمال، وكان لي مثل جملك هذا جمل أحبه ولا أوثر عليه، ثم أهديته عزيزاً عليّ وبدأت بعدها أبحث عن مثله، فلا أجده كما أشتهي بهذه الصفة التي عليها جملك في الصورة، الهامة، الورك، الأخفاف، والحمد لله الذي أوصل مرادي إلى حتى بابي، وجعلني أظفر بما أريد عند من أحب فهل تبيعه لي.

فأبرقت ملامح الأعرابي وكأنما واتته فرصته وقال في تأكيد:

- أيها الأمير ما دام نسبك فينا فلا حاجة بنا إلى شراء وبيع وليأخذ الأمير هدية واحد من أخواله.

فابتسم آبان وربت على كتفي الرجل ثم قال يخاطب صاحبيه:

- أرأيتم شهامة رجالنا وسخاء أيديهم.

ثم التفت إلى الرجل يقول:

- ولكن الهدية لا تطلب، فنأخذ هذا بثمنه، ثم تكون لنا عندكم هديتنا من بعد.

فأبرقت ملامح الرجل مرة أخرى وازداد اطمئناناً واستيقظت في نفسه الأطماع وهمّ أن يتكلم ولكن الأمير المزعوم قاطعه يقول:

- وكم تطلب له ثمناً؟
- أنا لا أطلب، وما يراه الأمير مرضي ومقبول.

فقال آبان:

- سأبذل لك فيه مائة دينار.

فازدادت ملامح الرجل إبراقاً وعبرت مطامعه عن رضاها.

فمال الأمير على أشعب يقول له:

- ويلك يا أشعب إن خالنا هذا من أهلك ومن خاصة أقربائك (يعني في الطمع والجشع) فأوسع له مما عندك واستوص به.

فانحنى أشعب بين يدي (الأمير) وقد أدرك ماذا يريد الرجل وقال:

- بأبي أنت وأمي أيها الأمير إن له عندنا إكرامه وزيادة تكريماً لصلته بك، ولقد قدرنا له أكثر من ثمن جمال عدة والأمر بعد هذا لك.

فالتفت الأمير إلى الإعرابي وقال له:

- يا خال، لا تظن أني حينما زدتك في الثمن كنت على غير بصيرة بحقيقة الذي يساويه جملك.

فاندفع ابن زينج منحنياً بين يديه ويقول:

- عفواً سيدي الأمير، فأنت لكل دراية ومعرفة..

فأضاف الأمير:

- إن جملك يا خال يساوي ستين لا غير وإنما بذلنا لك مائة لقلة النقد عندنا، ولأني عزمت أن أعطيك بدل الدنانير ما تساويه عروض التجارة.

فأبرقت أسارير الأعرابي فوق إبراقها، وبانت على وجهه نشوة من يبدو كأنما نجح في استغفال هؤلاء المتحذلقين من سكان المدن. وقال الأمير:

- إني موافق على ما يراه الأمير وما يكون لمثلي عند مثله حساب.

فمال الأمير على أشعب، فأسرّ إليه حديثاً قام بعده أشعب إلى داخل البيت ثم خرج وعلى يديه شيء مغطى وضعه ووقف. فقال الأمير:

- اكشف ما جئت به يا أشعب.

فكشفه، فإذا عمامة قديمة وقلنسوة أشد قدماً، وخفان باليان، لا تعرف أحداهما عن صاحبتها شيئاً.. فقال الأمير:

- قوّم المتاع يا أشعب، وعليك يا ابن زينج أن تثبت الحساب في قرطاس.

فأخذ أشعب يطري محاسن العمامة الأميرية التي لا قبلها عمامة ولا بعدها عمامة، ولا عجب فعمامة الأمير أميرة العمائم، ومن يظفر بها فكأنما ظفر بكنوز قارون.. وكان مما قاله له أشعب:

- عمامة الأمير، يشهد فيها الجميع والأعيان ويزدان بها رأسه الشريف في الأعياد والمحافل ويلقى فيها الخلفاء ويستقبل الرؤساء فلا يكونون بحضرته إلاّ خشعاً خاضعين. مثل هذه العمامة لا تقدّر بالمال، ولكني أضع لها قيمة رمزية: خمسين ديناراً.

قال الأمير:

- ضعها بين يدي خالنا، وأنت يا ابن زينج أثبت عندك قيمتها.

فكتب الكاتب: ووضعت العمامة بين يدي الأعرابي، فكاد يدخل بعضه في بعض من الغيظ ولكنه لم ينطق..

ثم التفت الأمير ثانية إلى أشعب وقال:

- هات من المتاع. هات قلنسوتي.

فأخرج أشعب قلنسوة طويلة بالية قد علاها الدهن والوسخ وتلبد فيها التراب والعراق، وما تزيد قيمتها على نصف درهم. وعرضها أمام الأمير لتقويمها.

ففعل أشعب هنا ما فعله من قبل: خطبة طويلة عن قلنسوة الأمير التي تعلو منه مكان العظمة، ويصلي فيها بين يدي الله ويجلس بها للحكم، قلنسوة كهذه لا تقدر بثمن ولكني أضع لها ثمناً رمزياً: ثلاثين ديناراً.

فالتفت الأمير لى كاتب الحساب يطلب إليه أن يثبت. ووضعت القلنسوة بين يدي الرجل الذي إربدّ وجهه وجحظت عيناه وهم أن يثب على الرجل ولكنه تماسك في مكانه وكأنه يجلس على شوك. ومضى الأمير يتابع الملهاة. فطلب إلى أشعب تقديم باقي ما في المتاع، فأخرج خفين قديمين قد نقبا وتقشّرا وتمزقت وصالهما. وعلى نفس المنهج لم ينس أشعب أن يقول فيهما واحدة من مدائحه: خفا الأمير وما أدراك ما خفا الأمير، يطأ بهما الروضة الشريفة ويعلو منبر النبي صلوات الله عليه وسلامه. أمثل هذين الخفين يقدران بمال؟ لا.. ولكني أضع لهما ثمناً رمزياً: أربعين ديناراً..

فالتفت الأمير إلى كاتبه وأمره:

- أثبت ذلك عندك، وانظر كم يكون الحساب ألخالنا عندنا أم لنا عنده؟

فأخذ ابن زينج يرفع نظره عن الورقة ثم يهبط به، ويعد على أصابعه ويحرك شفتيه ولسانه ثم قال:

- بل يكون لنا عنده عشرون ديناراً. يرسل الأمير معه من يستوفيها منه.

فوثب الأعرابي فأخذ القماش يضرب به في وجوهنا أشد ما يكون الضرب ويسب آباءنا أقذع ما يكون السب. ثم اتجه إلى الأمير آبان يقول:

- أتدري بأية حسرة أموت؟ (ولم ينتظر بل أضاف) لأني لم أدرك أباك عثمان حتى أشترك في دمه فما كان يلد لنا مثلك..

ثم نهض كالمجنون فأخذ برأس بعيره، وتركنا من خلفه نتلوى من ضحكنا كأنه قد مسّنا الشيطان..

ومرّت الأيام.. ولكن حديث هذه النادرة لم يكن يفارق شفاهنا ولا شفاه كل مجالس السمار، بل إنها لم تفارق خيال الأعرابي نفسه، فكان إذا وقعت أعينه بعدها على أشعب يجري وراءه ويقول:

- هلم إليّ يا بن الخبيثة حتى أقوّمك كما كنت تقوّم المتاع.

فيجـري أشعب من طريقه هارباً إلينا لتصنع من هربه إحدى تسالينا.

أشعب ووالي الحجاز

حـدث أشعب وهو صبي أن كان والي الحجـاز سائراً في الطريق، ومر أشعب أمامه فسأله:

- هل تعرف القراءة يا غلام.

فقال:

- نعم.

فسأله أن يقول شيئاً، فقال:

- إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً.

فسّر الأمير من جوابه وأعطاه ديناراً، فـرفض أشـعب أن يقبل الدينار. فسأله الأمير عن سبب رفضه. فقال أشعب:

- أخاف أن يضربني أبي.

فقال الأمير:

- قل له أن الأمير هو الذي أعطاني الدينار.

فقال أشعب:

- إنه لا يصدّقني.

فقال الأمير:

- لماذا..؟

فسكت أشعب لحظة ثم قال:

- لأن هذه ليست عطية الملوك.

يا أيها الذين آمنوا

ونـزل أشـعب بقوم فكانوا يطعمونه الخبـز والمخلل ولا يزيدون عليه، فصلى بهم يـوماً الـصبح وقـرأ فـي الركعة الأولى بعد الفاتحة:

((يـا أيهـا الذين آمنوا اتقوا الله ولا تطعمـوا أئمتكم كامخا بل لحما. فإن لم تجدوا لحما فشحما. فإن لم تجدوا شحما فبيضا. فإن لـم تجـدوا بيضا فسمكا. فإن لم تجدوا سمكا فلبنا. ومن لم يفعل ذلك فقد ضل ضلالاً مبيناً))

وقرأ في الركعة الثانية بعد الفاتحة:

((يـا أيها الذين آمنوا اطبخوا سكباجا ولا تحمـضوه تحميـضا فمن يفعل ذلك افترى اثماً عظيما)).

فلما فرغ من صلاته جاؤوه واعتذروا إليه عن التقصير في حقه لأنهم لم يكونوا على علـم بأن الله أنزل في ذلك قرآنا. ولما سألوه في أي سورة هذه الآيات قال:

- في سورة المائدة.

أشعب بين خصمين

وقال أحد الأمراء لأشعب يوماً:

- مـاذا تقول في الفالودج، واللوذينخ، أيهما أطيب.

فقال:

- لست ممن يقضي بين خصمين غائبين.

فضحك الأمير وأمر بإحضارهما.

فـبدأ أشـعب يأكل من هذه لقمة ومن ذاك لقمة حتى قضى عليهما ثم قال:

- مـا رأيـت خصمين أشد جدلاً منهما، كلما أردت أن أقـضي لأحـدهما أدلـى الآخـر بحجته.

أشعب أمام الكعبة

وحكـى أشـعب عن نفسه مما رواه المدائني قال:

ضـقت يـوماً بنفـسي وبثقلـي على الـناس، وكنت أول الأمر آخذها مزاحاً وعبثاً، وكانـت فورة الشباب ورداء الصبا تحسّنان لي كل شيء، حتى السيء المرذول من أفعالي.

فلمـــا بلغت مبلغ الكهول، وصرت في مقـــام العـــتب شعرت ببعض ثقلي على الناس وعلـــى نفسي، وبدأت أضيق بوخز الناس لي، فعـــزمت على أن أقلع عن أفعالي، ولكن نهمي بمـــا فـــي أيـــدي الناس من طعام أو من غير الطعام كان قد أصبح عندي شيئاً كأنه المرض أغالـــبه فيغلبنـــي، وأهـــرب منه فلا أكاد أفعل فعولت على أن أستعين بالله وبالرسول..

وذهـــبت يـــوماً إلـــى الكعـــبة فتعلقت بأســـتارها وطفقـــت أدعو وأقول: (أللهم اذهب عنـــي الحـــرص والطلب إلى الناس).. وكأنما أبـــواب الـــسماء مفتحة لدعواتي، فقد مررت بالقرشـــيين فمـــا استوقفني منهم أحد ومررت بغيرالقرشيين فما أعطيت شيئاً فشعرت ببعض الـــراحة ومضيت إلى أمي، فرأتني أدخل على غيـــر ما اعتادت، بلا شيء في يدي ولا حمل على كتفي. فصرخت في وجهي:

- ما لك تجيئني خائباً؟؟

فأخبرتها بأمري، فقالت:

- والله لا تـــدخل علـــيّ، حتى تذهب إلى ربك هناك عند الكعبة فتطلب إليه أن يعفيك من إجابـــته لدعـــوتك.. وإلاّ فأنـــت تعرف أين يكون مصيري ومصيرك..؟

فـــرجعت مغلوباً على أمري إلى حيث كـــنت بالكعبة أتشبث بأستارها وأقول: (يا رب قـــد رجعـــت فـــي دعوتي فارجع في أجابتك) ومـــضيت، وكأنما كانت أبواب السماء ما تزال مفـــتحة لـــي. فما مررت بمجلس للقرشيين أو غيرهم إلاّ أعطوني ومنحوني ووهب لي أحدهم جمـــالاً محملـــة، ووهب لي آخر غلاماً. فجئت أمي، وأنا أخشى عليها إن علمت بما ظفرنا به أن تقـــتلها المفاجـــأة فرحاً. فاستوقفت الجمال بعـــيداً عـــن الدار وتركت الغلام إلى جانبها ثم دخلت عليها، فابتدرتني سائلة:

- أي شيء عدت به إلينا؟
- قلت: غين.
- قالت: وأي شيء غين؟
- قلت: لام.
- قالت: وأي شيء لام؟؟
- قلت: ألف.
- قالت: وأي شيء ألف؟
- قلت: ميم..
- قالت: وما معنى ذلك يا ابن البلهاء؟؟
- قلـــت: يـــا أخـــت الخبيثات غلام، وجمال محملة، بالخير والمال..

ويقـــول أشعب مكملا قصته: فأغمي عليها وارتمت على عتبة الدار لا تكاد تتحرك. ولو لم أقطع الحروف لماتت الفاسقة فرحاً.

الريح المصوتة

وجلـــس أشعب يوماً إلى جوار مروان بـــن آبـــان بن عثمان فانفلتت من مروان هذا ريـــح لهـــا صوت فغشيته سحابة من الخجل، ومـــال علـــى أشـــعب وهمس في أذنه بكلام، فانطلـــق أشـــعب يوهم الناس أنه الذي خرجت مـــنه الـــريح، ويعلل هذا بأنه لم يكن في هذه الـــليلة قـــد أحسن رباط دبره، لأن الحبل الذي اعـــتاد أن يربطها به قد ضاع. وبأنه نظر إلى فـــضاء بطنه وإلى فضاء الكون، فرأى الكون أرحـــب فضاء وأكثر سعة فعزم ألاّ يختزن في بطـــنه شيئاً. بغير هذا من الأعذار والعلل التي كـــان يـــضحك لها الناس، وفي غمرة الضحك ضاع الفاعل الحقيقي في هذه الليلة.

فلمـــا مـــضى الـــناس إلـــى دورهـــم وانـــصرف مروان إلى منزله تبعه أشعب يقول له:

- أين الدية؟
- دية ماذا؟
- دية الفعلة التي فعلتها في ليلتنا هذه وعلى ملأ من الناس.

ثم لوى وجهه في وجه مروان وقال له:

- إن شئت تدفع بالحسن ظل ما بيننا مستورا، وإلاَّ شهرت الحقيقة بين الناس، حتى أجعلها تدوي أكثر من ريحك المصوتة.

وأحس الرجل بخطر الفضيحة يهدده فلم ينصرف أشعب إلاَّ وفي يده الشيء الذي كانا قد اتفقا عليه..

أرضعيه من ثدييك

وقال محمد بن أبي قبيلة:

ظفر أشعب يوماً في إحدى جولاته بجدي أهداه إليه كريم من الكرماء ولم يكن من المتوقع يوماً أن يقدم (ابن أم الجلندح) على ذبح الجدي والتضحية به حتى ولو وصفه الأطباء ليكون له دواء.. فقد تعود هذا الرجل أن يعيش على ما يأخذ من الآخرين ولو ملئت داره ذهباً وأصبح في غير حاجة إلى الآخرين.. ولذا رتب الرجل خطته للإفادة من هذا الجدي على نحو ما يستفيد الصياد من الطعم الذي يثبته في طرف (سنارته) ليجلب له الكثير.. وكان مقتضى الخطة، أن يغذي الجدي حتى يبلغ غايته. فلما بلغها جاء إلى زوجته فهمس في أذنها أن ترضع الجدي من الثدي الذي أرضعت وليدها منه. فعجبت المرأة مما طلب إليها ولكنها أطاعته دون مناقشة فقد عودها أن يكون جلاباً للخير من وراء هذه الأفاعيل.. وفي اليوم الذي حدده أشعب لتنفيذ خطته سعى بجديه إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد فقال ويده تشير إلى الجدي:

- والله أنه ابني قد أرضعته لبن زوجتي وربيته عليه وأنت تعلم محبتي لك ومنزلتك عندي ولست أرى فما يستأهله غيرك.

فابتسم إسماعيل وشكر له مشاعره ثم أمر رجاله بالجدي فذبحوه وصنعوا منه طعاماً. وبالطبع كان أشعب قد بقي حتى يأخذ نصيبه من الضحية ويطمئن على مضي خطته في الطريق الذي دبره.. فلما فرغوا وهم بأن ينصرف لم ينس بأن يميل على إسماعيل يسأله (المكافأة) فقال إسماعيل:

- أولست أهديتني؟

- ولكن الأمير يعلم وليس أولى منه أن يعينني.

- أما اليوم فلا وقد نستطيع تعويضك في الغد.

لن أرضى فدية ابني

وفي الغد كان أشعب يمضي وفق خطته المرسومة، إلى مجلس الأب جعفر ابن محمد يطلب الإذن في حاجة عاجلة فلما أذن له اندفع إلى المجلس ويداه مثبتتان على صدره كأنما يهم بأن يشق ثيابه وصدره يغلو ويهبط وكأنه يحتضر، ثم قال وكأنه يلتقط الكلمات من أعماق واد سحيق:

- أريد أن اتحدث إلى مولاي في أمر لا يطلع غيرنا عليه.

فأخل جعفر مجلسه وقال له محاولا أن يطمئنه:

- لا عليك الآن، وأسرع في عرض ما يزعجك.

فقال أشعب والجزع المصنوع لم يفارق مظهره وفي أعماقه شيطان مريد يقهقه:

- ابنك إسماعيل يا مولاي؟ أمامي وتحت سمعي وبصري وبين يدي.. وثب على ابني فذبحه.

- ماذا؟ وثب على ابنك فذبحه..

- نعم يا مولاي وعيني تنظر ويدي لا تستطيع أن تدفع، ومالي مفزع سواك اليوم.

فارتـاع جعفـر ونـدت مـنه صيحة إنزعاج مضطربة:

- ويلـك وويلـنا يا أشعب وماذا نصنع لك، وماذا تريد منا؟

فقهقـه صـوت الـشيطان في أعماق المحتال الكبير، واقترب من جعفر ليتابع أحكام خطته:

- أمـا إسماعيل فمالنا به حيلة ولندفن الأمر مـا يـسمع به أنس ولا جان وما عوضي فعلى الله و..

فتـنهد جعفـر وكأنمـا إنزاح كابوس خطير عنه ومد يده يمسح رأس أشعب ويربت على كتفيه ويقول:

- جـزاك الله خيرا يا (أبا وردان)، فما رأينا مـثلك إخلاصـاً وولاء وحـسن معالجـة للأمور.

ثم نهض من يده ودلف به إلى خزائن المـال فـي داخـل البيت ففتحها ونثر أكياس الدنانير بين يدي أشعب يأخذ ما يشاء..

فـازداد الـشيطان الكامن في أعماق أشـعب صراخاً وقهقهة ورفع يديه المتشبثتين في وجه الأمير يقول:

- إن كـل خـزائن الأرض لن تعوضني عن ابني وإني قد استعوضت الله فيه وما أريد من مالك شيئاً.

فأصـرّ الأميـر علـى أن يأخذ أشعب وأصـرّ أشـعب علـى أن يرفض، وانتهى ما بيـنهما حـين انتزع الشيخ من خزائنه خمسة أكـياس في كل منها مائة دينار دسها بين يدي أشـعب وختم عليها بيمين عظيمة ألاّ يردّ منها شـيئاً.. ولـم يكـن أشعب بالطبع محتاجاً إلى اليمـين، فـتلك كانـت أغلى أماني عمره، أن تقـبض يده على مئات الدنانير من أجل جدي رضـيع فمـا أن وصلت قدمه إلى الباب حتى أسـرع يـسابق الـريح إلى منزله من قبل أن تكشف الحقيقة..

أمـا الرجل الآخر جعفر بن محمد فقد غـادر فـوره مجلسه وفي رأسه دوار يغشى الدنيا أمام عينيه وقدماه تترنحان في خطوهما حتـى يكاد يتهاوى وما يكاد يدري الطريق في مجلـس ابـنه إسـماعيل.. وحـين بلغ الأب المتداعـي مجلس ابنه رآه مع رفاقه يسمرون ولا يـبدو عليهم من أمارات الاضطراب شيء، فوقـف لحظات كالمبهوت لا يدري ما يقول ثم اسـتدار لـيعود.. فوثب ابنه يسأله عمّا أهمه فابتعد الأب بابنه عن مجلس الرفاق واستفسر مـنه عـن ظروف الحادث.. ظروف الجريمة التـي راح ضحيتها أحد أبناء الشعب؟ وكانت المفاجأة الكبرى حين أدرك الشيخ أنه هو الذي كـان الـضحية الـسمينة لألعوبة من ألاعيب أشـعب. والطريف أن الشيخ المخدوع كان إذا لقي أشعبا بعدها لا يزيد على أن يقول له:

- روعتني يا خبيث روع الله أيامك.

فيقول له أشعب:

- روعة ابنك أيانا في الجدي أشد من روعتنا إياك في الدنانير.

ويبتسمان..

ما لنا في بناتك

كـان أشعب هذا يلازم طعام سالم بن عـبد الله بن عمر رضوان الله عليهم، وكان لا يـدع له الفرصة ولو مرة واحدة يأكل فيها مع أهـل بيته. واستبد بالرجل شوقه أن يأكل مع بـناته يوماً. ولكنه كان يحسب حساب أشعب، ففكر في أن يخرج إلى البستان بعيداً بعيداً عن داره، وكـان للبـستان ما يشبه السور الكثيف العالي.

وجاء أشعب كعادته وقت تناول الطعام فـي منـزل سالم، فأخبره بعض من في البيت بحقـيقة مكانـه، فاستأجر جملاً بدرهم وركبه حتـى وصـل البستان، فلما اقترب من السور وأصـبح من فوق جمله يستطيع أن يطل فيرى مـن بالداخل، أبصر سالماً وبناته وبين أيديهم الطعام فقذف بنفسه من فوق الجمل عليهن.

فأسـرعت البـنات يختبـئن، وأسرع الـرجل يطـرح علـيهن ثوبه وهو يصيح في أشعب:

- بناتي بناتي أيها المجترئ على المحارم..

فأهوى أشعب على الطعام يلتهمه وهو يقول:

- لقـد علمت ما لنا في بناتك من حق، وأنك لتعلم ما نريد.

ظريف حتى الموت

كان المرح طبيعة عند أشعب لا يتكلفه ولا يـستطيع أن يـتخلص مـنه حتى في أشد المواقـف رهـبة وأبعدها عن الضحك والمرح مثل ساعة الموت. قال المدائني:

- حدثني شيخ من أهل الدينة فقال:

كانـت هناك امرأة حسود شديدة العين لا تنظـر إلى شيء فيعجبها إلاَّ وتصيبه عينها بكل شر وينزل بصاحبه ما لا يطيق من مكروه وكـان أمـرها معـروفاً لدى كل أهل المدينة يتحاشـون لقياها ويكتمون عنها كل ما يرض مـن الأحوال والأخبار، فراراً من عينها ونجاة من عواقب روحها الشريرة.

دخلـت المرأة يوماً على أشعب وكان علـى فراش الموت يلفظ أنفاسه الأخيرة وإلى جـواره ابنـته تستمع إلى وصيته وتحاول أن تعرف منه ما تحتاج في هذه اللحظات أن تكون به على علم.

وكان مما أوصى به أشعب ابنته قوله لها:

- يـا ابنتي: إذا مت فلا تندبيني بصوت عال حتـى لا يسمعك الناس لأنك لن تجدي من صـفاتي مـا يشرفك أن تندبيني به، وإن اجتـرأت علـى الكذب كما كان يفعل أبوك فصرخت تقولين.. وا أبتاه.. أندبك للصلاة فـي مـسجد خلا مكانك فيه، أندبك للصوم تـسقي ظمـأه وتطعم جياعه، أندبك للفقه، أنـدبك للقـرآن. إن اجترأت على هذا فلن يـصدق أحـد، وسـتخرج اللعنات تكويني وتكويك.

فـي هذه اللحظات دخلت المرأة فلمح فـي عينـيها نظرات الإعجاب برجل هذا عقله بكامـل وعـيه وهو يموت، فأسرع هذا الميت أشـعب فغطى وجهه ثم اتجه إلى المرأة يقول لها:

- يا فلانة: بالله إن كان قد أعجبك شيء مما أنا فيه من الموت فصلي على النبي حتى لا تهلكيني.

فغضبت المرأة وقالت:

- وفـي أي شيء أنت مما يستحسن سخنت عينك؟ إنك الآن تهلك، ولا يمكن أن تصيبك عيني بأكثر مما أنت مصاب به..

فقال لها أشعب:

- ربمـا أعجبـتك خفـة الموت على وجهي فتصيبني عينك فأزداد بلاءً وكربا..

قالـوا: فخرجت المرأة من عنده تسبه وتلعـن لسانه الطويل حتى الموت وتركته بين أصـحابه يضحكون من آخر نادرة في تاريخه وفي حياته.. وبعدها مات..




من قال قد ماتَ الهوى؟ ..

شعر: وداد طويل عبد النور

ماتَ الهوى
فلنعترفْ مات الهوى
ما عادَ يُجرَحُني الحنينْ..
ما عادَ يقتلني النَوى
ماتَ الهوى..

*   *   *

ما للزنابقِ أَطْبَقَتْ أَجْفانَها؟
ما للخمائلِ فارقَتْ ألوانَها؟
ما للعنادلِ لازَمَتْ أوكارها؟
حتَّى الحدائقُ أغلَقَتْ أبوابها..
وتصدَّعَ القلبُ الحنونْ
وتجمَّدَ الدَمْعُ الهتُونْ
واختلَّ ميزانُ الهوى
ماتَ الهوى..

*   *   *

مَنْذا يُعيدُ إلى الجُفُونِ رُقادَها..؟
وإلى المشاعرِ نَبْضَها وشبابها..
مَنْ يُعيدُ إلى الأُمورِ نَصابَها..
مَنذا يُعيرني أدمُعاً أَبكي بها..
هَلْ يا تُرى أنتَ السَبَبْ؟
أَم قُدَّ قلبي من خَشَبْ
أَمْ هكذا طَبعُ الهوى
ماتَ الهوى...







ما ذَنْبُ قَلْب إنْ تجرَّح قَلْبُهُ؟
ما ذَنْبُ طفْلٍ إنْ تعَثَّرَ خَطْوُهُ؟
ما ذنبُ غُصْنٍ ما تَبَرْعَمَ غُصْنُهُ؟
يا وَيْحَ عُمْرٍ ما توَرَّدَ خَدُّهُ..
مَنذا يُخَطِّطُ للورَى؟
منذا المُلامُ بما جرى؟
مَن زَفَّ قلبي للنوى؟
ماتَ الهوى..

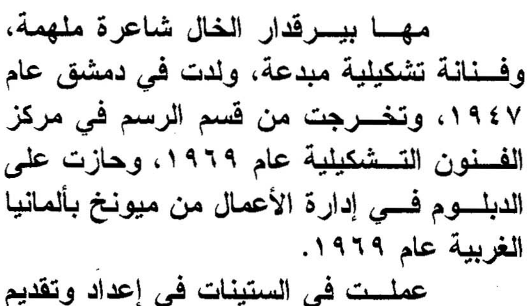
*　*　*

قد آنَ تَبْسمُ للدُنا يا قلبُ آنْ..
يكفي احتجابُكَ خَلْفَ أسوارِ الزمان..
إني تَعبْتُ من الحنين إلى الحنان..
عُدْ بي إلى زَمَنَ الطفولة والأمانْ
فلَرُبَّما عادَ الربيعْ
واستوطنَ القلبَ الوجيعْ
ولربما عادَ الهوى
ماتَ الهوى..

*　*　*

ورجعْتَ تُحْيي في الحنايا ما انهدمْ..
والوجْهُ يَقْطُرُ بالندامَة والألمْ..
كيفَ استفاقَ بمُهْجَتي حُلْوُ النغَمْ؟
فغَرَفْتُ من نبعِ التصافي والقيمْ
ونسيْتُ جُرْحي والنوى..
وأضأتُ مصباحَ الهوى..
مَنْ قالَ قَدْ ماتَ الهوى؟؟
عاد الهوى..



مها بيرقدار الخال شاعرة وفنانة تشكيلية

بقلم:
أ.عيسى فتوح

مهـا بيـرقدار الخال شاعرة ملهمة، وفـنانة تشكيلية مبدعة، ولدت في دمشق عام ١٩٤٧، وتخـرجت من قسم الرسم في مركز الفـنون التـشكيلية عام ١٩٦٩، وحازت على الدبلـوم فـي إدارة الأعمال من ميونخ بألمانيا الغربية عام ١٩٦٩.

عملـت في الستينات في إعداد وتقديم بـرنامج (اللـيل والشعر والموسيقى) بإذاعة دمـشق، وشاركت في أكثر من سبعين أمسية شـعرية في لبنان وسورية ودول الخليج، كما شـاركت فـي مهرجان (المربد) الشعري في العـراق، ومهـرجان (المحـبة) فـي اللاذقية بـسورية، وحازت على درع الثقافة من نادي (لاجوكـوند) فـي (الـذوق) وبـيت الفن في طـرابلس (لبـنان)، وعلـى شهادة تقدير من الأكاديمية الكندية في بيروت.

عملـت كاتـبة ورسـامة فـي مجلة (فيـروز) بـدار الـصياد بـين عامي ١٩٨٠ و ١٩٨٧، وفي إعداد وتقديم البرامج الثقافية فـي الإذاعـة اللبنانـية بـين عامي ١٩٩٢ و١٩٩٩، وشـغلت منصب رئيس تحرير مجلة (إيـوان) المتخصـصة بـالفن والديكور عام ١٩٩٤، ومجلـة (الجدار) الثقافية الفكرية عام ١٩٩٦.

كتـبت عـدداً مـن الأغاني للأطفال، ورسـمت لهم بعض الكتب، كما كتبت أغنيتي حب، الأولى بعنوان (حبيبتي) غنتها ابنتها ورْد الخـال وغـسان سالم، والثانية بمناسبة عيد العشاق، وغنتها ورد بمفردها.

أقامـت بين عامي ١٩٧٣ و٢٠٠٣، تـسعة معـارض فردية في بيروت وطرابلس. وصـيدا، ودمـشق.. وشـاركت في عدد من المعـارض الجماعـية فـي غاليـري (واحد) وغاليـري (دامـو) وكازيـنو لبنان، والصالة الـزجاجية بوزارة السياحة اللبنانية، وغاليري الـريف، ومـتحف سرسـق، والبت الألماني

اللبناني، والنبطية، وصور، وغزير، وأبو ظبي، ودبي وغيرها...

تزوجت عام ١٩٧٠ من الشاعر الكبير يوسف الخال (١٩١٦- ١٩٨٧) مؤسس مجلة ودار (شعر) للنشر في بيروت، رغم فارق السن بينهما، وأنجبت منه ولدين هما (ورد) الممثلة المعروفة و(يوسف).. وقد تزوجته لإعجابها بشعره وثقافته الغنية، وشهرته الواسعة، ومشاريعه الأدبية الكبيرة، وأهمها مجلة (شعر) التي كانت مدرسة حقيقية تخرج منها أدباء وشعراء كبار يملؤون اليوم الساحة الأدبية في الوطن العربي.

لم تكن حياتها مع زوجها أفراحاً كلها، لأنه كان رجلا واقعياً، وذا شخصية طاغية إلى حد القسوة، وهي شفافة ورقيقة كحلم، تعيش في الأحلام أكثر مما تعيش في الواقع، ولكنّ بقاءها أعطى الكثير على صعيد الفن شعراً ورسماً وأبعاداً إنسانية.

لقد رهنت حياتها بعد رحيل زوجها لتربية ولديها، ولم تفكر بالزواج مرة أخرى، رغم أنها كانت لا تزال في أوج جمالها وتألقها، وانصرفت كلياً إلى الرسم وكتابة الشعر، وفضلت الإقامة في بلدة (غزير) الجبلية بكسروان، لتتمتع بالهدوء، والسكينة وجمال الطبيعة الموحية، بعيداً عن الحياة الصاخبة في بيروت.

تقول مها عن نفسها:

"إنني كموج البحر الذي يتهادى على الرمال بهدوء، وأنا من دون فرح كبير بالضرورة، فمع تقدم العمر مرتاحة نوعاً ما، وذلك نتيجة طلعات ونزلات قوية في السابق.."

هي والحزن صديقان عتيقان، ولكنه الحزن العميق الشفاف، أو الحزن الفلسفي الذي لا ينجم عن حاجة مادية، أو حرمان من أشياء صغيرة غير متاحة.. الحزن المفكر الذي ينظر إلى العالم غير المستقر، وغير المنسجم، ويريد له أن يكون أفضل.. الحزن الذي يرى تعاسة البشر، ويود لو يستطيع أن يمنحهم السعادة والفرح، ولكنه لا يقدر فيحزن.. ولذلك تقول:

"الفرح نادر في حياتنا، وعمره قصير جداً، أما الكآبة فوقعها أكبر وأوجع، وإنني أخفف من وطأتها في حياتي عبر تلك الألوان الزاهية التي استعملها في لوحاتي، ولكن تبقى لمسات الحزن حاضرة في الأشجان ووجوه ناسي... أنا لا أستطيع الهروب من الإيقاع الداخلي للحزن العميق الموجود في..."

وتعترف للأديبة ناديا الجردي نويهض بأن الحزن قد يكون موجوداً في حياتنا منذ الطفولة، ولكن التقدم في العمر وعمق التجارب، يجعلاننا نرى الأشياء على حقيقتها أكثر فأكثر نخاف من الزمن والمجهول، والموت يزيدنا حزناً على حزن، لكنه عند الفنانين هو الحزن المبدع والخلاّق..

وتؤكد لها أن رسالة الفنان هي أن يخلق الفرح للآخرين، فالفن يهدف إلى الإمتاع، وإلى خلق حالة من الفرح في وجدان الناس، ولكن الفنان يبقى في الحقيقة وحيداً وهو في أوج تألقه، لأن ألمه أعمق من ألم الإنسان العادي...

آثارها الأدبية

- عشبة الملح (شعر) دار مجلة شعر بيروت ١٩٨٧- الطبعة الثانية ١٩٨٩.
- رحيل العناصر (شعر دار صادر- بيروت ١٩٩٥).
- صمت (شعر).

شعرها

يقول الناقد اللبناني عبده وازن عن الشاعرة مها بيرقدار:

"إنها تكتب الشعر كما يحلو لها... بحرية تامة، بعفوية مطلقة فلا مرجع سوى ذاتها، ولا نبع سوى عالمها الداخلي تحسه، تعيشه، أو تتأمله، لذلك تميل إلى شعر واسع المشارف، عفوي الملامح، أكثر مما تميل إلى القصيدة كعالم مغلق، كهندسة روحية داخل الخراب الكبير... فالشعر قبل أن يكون حضوراً لغوياً، هو غياب روحي، هو انتشاء بالعالم..."

عن من يقرأ ديوانها (عشبة الملح) و (رحيل العناصر) يحس بمدى استلهام مها من عالمها الداخلي، من ذاتها، من أعماق وجدانها الذي صهره الحزن والألم، وصقّته التجارب المريرة.

شعرها تجسيد لاحساساتها المرهفة، ولصراعها مع الحياة وانعكاس لأحلامها الوردية وانكساراتها... تقول:

قبّلني رجلُ لا أعرفه
غاب بلا ألمِ
التويت على أحلام كالورقْ...
حبّةُ النومِ
زهريةٌ مغرية
هي لحظة..!
وأغرقُ ليلاً آخر،
في ظلمةِ يقال عنها سعيدة...

وتبدو في قصيدتها (يوميات في القبر) ملامح من رومانسيتها، فهي تتمنى لو تدفن دفناً هادئاً قرب إحدى البحيرات، حيث يخيم السكون وصمت الشجر. بعد أم ملأت مناديلها دموعا:

أقصي التمني
دفنٌ هادئ قربَ بحيرةٍ
دموعٌ تسكن المناديلَ
صمتُ شجرٍ
سقته يوماً يدٌ عندَ المغيب

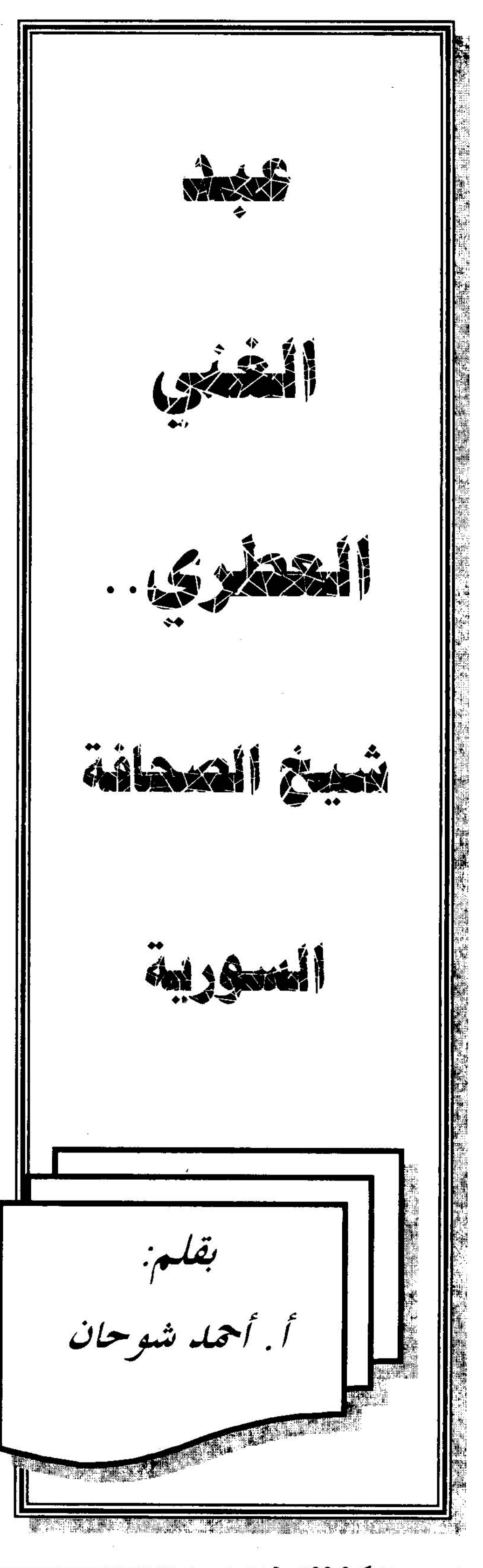
وتخشى من تقدمها في العمر، وذبول النضارة، وانحسار الجمال، ودبيب الشيخوخة في جسدها الغضّ فتقول:

هو العمرُ
ملائكةُ الوقت حولَ سريري
تعلنُ بأنني أشيخُ
وأن خطواتي ليست كالأجراسِ
حقاً.. أشيخ
لأن صبري كصبرِ النمل

ونتوقف أخيراً عند قصيدتها التي كتبتها إلى زوجها الراحل يوسف الخال، وعبرت فيها عن حزنها العميق، وألمها الممضّ على فراقه الذي لا يُطاق، وكيف اتشحت بالسواد، وهي لا تزال في منتصف ربيعها.

... يلتهب الرخامُ تحتَ قدميَّ
من يسحبُ النسغَ من عروقي..؟
كيف تتعالى الروحُ
من يطيقُ هذا الفراق..؟
أتمدَّد في الحريقِ
أيُّ سرٍ يختم هذا الغيابَ
منتصف الربيع
عرفَ النهارُ ليله
لفني حريرُ السوادِ
ومثلِ الوقت
تجمَّدتُ، نمتُ في الانكسارِ...

لقد شطرت مها بيرقدار الخال حياتها شطرين: شطراً للرسم، وشطراً آخر للشعر، واستطاعت التفوق بينهما، دون أن يطغى اهتمام على آخر، فأبدعت فيهما معاً، ونالت شهرة واسعة في الأوساط الفنية والأدبية على حد سواء.



عبد الغني العطري.. شيخ الصحافة السورية

بقلم:
أ. أحمد شوحان

في حي سوق ساروجة وسط دمشق الآن، وفي عام ١٩١٩ ولد الأديب عبد الغني العطري بعد أن حزم العثمانيون أمتعتهم ورحلوا عن ربوع الشام بعد أربعة قرون، وبعد أن استعد الفرنسيون يحزمون أمتعتم في فرنسا ليدخلوا سورية بعدهم.

فترة عصيبة ومضطربة وشائكة تلك التي ولد فيها العطري ونشأ وعاش، ولكنها ربما كانت أفضل مما جاء بعدها حينما انتهكت كرامة الإنسان، وهدمت المساجد وطورد الشرفاء، فدخلوا أقبية السجون سنوات طويلة، فما كادت تنقشع هذه الغمة حتى كان وليد الأمس يكتب عن واقع بلده، وسيرة عظمائه، وحكايات أدبائه.

شيخ الصحافة

كانت بداياته في عام ١٩٤١ حيث بدأ ينشر مقالاته في مجلة (الرسالة) التي كان يصدرها الأستاذ أحمد حسن الزيات في القاهرة، وفي مجلة (المكشوف) التي كان يصدرها الأستاذ فؤاد حبيش في بيروت، حيث نشر العديد من المقالات في هاتين المجلتين، فكانتا بحق بداية خير له، وسبباً رئيساً لإصدار مجلة يشرف عليها بالشكل الذي يريد والنوع الذي يرغب، فأصدر مجلة (الصباح) في هذا العام، وهي مجلة أدبية، وكان في ريعان شبابه إذ بلغ الثانية والعشرين من عمره. عاشت هذه

المجلة سنتين حتى نهاية عام ١٩٤٣ حيث توقفت، فبقي سنتين بعدها يفكر في مجلة يصدرها خلفاً لمجلته الراحلة، فلما أطل عام ١٩٤٥ أصدر مجلة (الدنيا) فعاشت طويلاً فقد صدر منها ٦٢٦ عدداً. كانت خلال هذه الأعداد منبراً للأقلام الشابة، التي أصبحت فيما بعد في عداد الأدباء على مستوى الوطن العربي.

ولمجلة الدنيا قصة طريفة حبذا لو حذا حذوه عشاق الصحافة والثقافة من ذوي المال، فإبان الحرب العالمية الثانية منعت السلطات الفرنسية ترخيص الصحف في سورية، وأصبح الورق نادراً وغالياً، حتى سمي بـ (الذهب الأبيض) مما جعل المرحوم العطري يبيع قطعة أرض كانت لأهله ليشتري بثمنها امتياز جريدة (الوطن) اليومية بمائة ليرة ذهبية، ثم حوّل اسمها إلى مجلة (الدنيا) وظلت هذه المجلة تصدر رغم ظروفها المالية، المتعثرة والسياسية القلقة، وحينما ألغى حسني الزعيم امتيازات الصحف والمجلات بعد انقلابه العسكري الأول عام ١٩٤٩ بقيت مجلة الدنيا الوحيدة التي تصدر في القطر السوري.

وحينما قامت الوحدة السورية المصرية عام ١٩٥٨ أغلقت هذه المجلة كغيرها من الصحف والمجلات، لكنها عادت بعد الانفصال عام ١٩٦١، ولكنها لم تدم طويلاً حيث أُلغيت امتيازات جميع الصحف والمجلات بعد ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣، حيث أصبح على حد المثل العامي: (حداد بلا فحم) فسافر إلى المملكة العربية السعودية ليعمل هناك في اختصاصه.

كان رحمه الله يعتبر نفسه تلميذا لشيخ الصحفيين السوريين الأستاذ نجيب الريّس صاحب جريدة القبس الذي كان يمتاز بالجرأة على العدو المحتل، وسعة الثقافة، والإحاطة بسائر الموضوعات الوطنية والثقافية، كما كان يعتز بالصحفيّين الأخوين مصطفى أمين وأخيه علي أمين صاحبي جريدة (أخبار اليوم) المصرية.

لقد بقي حتى آخر أيامه يكتب زاوية أسبوعية في مجلة (فنون) التي تصدرها الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون السورية.

وآخر مقال نشرتها له جريدة تشرين كانت يوم وفاته بعنوان (جولة مرحة مع الأمثال الدمشقية) وهذا يعني أنه عاش مع الصحافة التي أحبها وأحبته حتى آخر يوم في حياته.

فبعد وفاته بيومين نشرت جريدة تشرين الدمشقية حواراً معه أجراه السيد محمد مروان مراد قال فيه: "استهوتني الصحافة منذ حداثتي وملكت عليّ فكري، فرحت أطالع الصحف اليومية والمجلات الفرنسية بنهم عجيب، وكتبت للمجلات العربية، فما أنهيت المرحلة الثانوية حتى كان اسمي يتردد في المطبوعات الشهيرة في ثلاثينيات القرن الماضي. ثم حققت مغامرتي الكبرى باستئجار امتياز جريدة متوقفة عن الصدور، وخرجت

بالعدد الأول من مجلة الصباح عام ١٩٤١ وكان مفاجأة للمثقفين ورجال الصحافة بما تضمنته من مواضيع ومقالات للأعلام والأدباء والشعراء العرب الذين قدموا روائع إبداعهم الفكري، وقد تسابقت على صفحات المجلة أسماء: محمود تيمور، زكي مبارك، علي أحمد باكير، سهيل إدريس عبد السلام العجيلي، بديع حقي، سعد صائب، أحمد صافي النجفي، فؤاد الشايب، عدنان مردم بك، نزار قباني وغيرهم ممن كانوا في بداياتهم في تلك الأيام".

عصبة الساخرين

كان رحمه الله يتابع الأحداث اليومية – سياسية واجتماعية – ويعد لها ما يناسبها من نقد لاذع، أو رد ساخر، أو جواب مقنع. وحيث أن مكتب مجلته يقع بين المرجة والقصر العدلي، فإن موقعها يجعلها على مفترق طرق العابرين والذاهبين والآيبين، فكانت ملتقى الأدباء، وكانت أشبه بصالون أدبي متواضع يجمع العديد من الأدباء والكتّاب مما جعل المكتب مركزاً لتأسيس (عصبة الساخرين) الذي يراقبون الأوضاع السياسية والثقافية بدقة متناهية، ويكتبون عن هفواتهم، وقد ضمت هذه العصبة عدداً من الكتاب البارزين منذ تلك الأيام، منهم الدكتور عبد السلام العجيلي، والأستاذ حسيب كحالة صاحب مجلة المضحك المبكي.

كان ذلك في بدايات حياته الصحفية، لكنه في أواخر حياته انتقل إلى شيء آخر، فإنه يقدس اللغة العربية التي كتب بها ونطق، وأخذ يخبر أصدقاءه القدامى وزملاءه الجُدد بأنه ينوي تأسيس جمعية يسميها (أصدقاء اللغة العربية) تقوم بالدفاع عن لغة الضاد وحمايتها من هجمة العامية والدخيل عليها، مما يشوه صورتها الجميلة وأصالتها.

رحلاته الثقافية

كان رحمه الله كلما توقفت له مجلة يصدرها في دمشق يرحل عن مسقط رأسه ليتابع مسيرته القلمية في قطر عربي آخر، فبعد أن توقفت مجلته (الصباح) في نهاية عام ١٩٤٣ عمل فترة رئيساً لتحرير جريدة (الأخبار) الدمشقية، حيث ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فراح يتنقل بين فلسطين والأردن وكلاهما يرزح للاحتلال الإنكليزي، فكان يلقي الأحاديث في إذاعة القدس، والمحاضرات في النادي الأدبي في عمان.

وعندما ألغيت جميع امتيازات الصحف والمجلات عام ١٩٦٣ سافر إلى المملكة العربية السعودية وعمل في وزارة الإعلام مستشاراً ثقافياً، ورئيساً لتحرير مجلة الإذاعة، حيث استطاع خلال هذه الفترة أن ينشر المقالات الأدبية الكثيرة في دوريات المملكة، فلما عاد إلى وطنه سورية تفرغ لنشر كتبه، وكتابة المقالات في الصحف والمجلات العربية.

مؤلفاته

بعـــد أن كتب العطري كثيراً ونشر في مجلتـــيه كثيـــراً، وأصـــبح يمتلك مخزوناً أدبياً وثقافـــياً واســـعاً، اعـــتكف في منزله في عام ١٩٧٠ لـــيجمع تلك الأشتات، ويؤلف بين تلك الأوراق والمقالات المتناثرة، فبدأ يجمع ويكتب فكان حصيلة جهوده القلمية المؤلفات التالية:

١- أدبنا الضاحك صدر عام ١٩٧٠.
٢- قلب ونار صدر عام ١٩٧٣.
٣- عبقريات شامية صدر عام ١٩٨٦.
٤- دفاع عن الضحك صدر عام ١٩٩٣.
٥- عبقريات وأعلام صدر عام ١٩٩٦.
٦- عبقـــريات مـــن بـــلادي صدر عام ١٩٩٨.
٧- حديث العبقريات صدر عام ٢٠٠٠.
٨- اعترافات شامي عتيق.
٩- بخلاء معاصرون.

لقـــد دوّن العطري رحمه الله في هذه المؤلفات طرائف وذكريات، ولكنه دوّن أهم من ذلـــك كله، لقد ترك لنا تراجم لكبار الشخصيات الأدبـــية والفكرية والسياسية كانت تلعب دوراً بـــارزاً فـــي ساحاتها ولأكثر من سبعين عاماً، حتـــى دخل أولئك الأعلام في صفحات التاريخ كـــلٌ فـــي المنهج الذي اتجه إليه وكان يطرق أبوابه.

وفاته

فـــي ســـوق ســـاروجة كـــان مولده ونـــشأته، لكـــنه حينما نشأ وشب، كان يقطع طـــرق وممـــرات ضيقة يومياً ليصل إلى سوق الطـــيور فالمـــرجة، أو سوق الهال فالحميدية، وبعـــد نحـــو ستين سنة أصبح يمر من شارع الـــثورة بعـــد توسعة المنطقة وشق الشوارع وإقامـــة الجـــسور تـــسهيلاً لرحكة السيارات والمـــشاة، فبقـــي يمر في شارع الثورة قرب (جسر الثورة) أكثر من ربع قرن بأمان وسلام، لكـــنه حين طعن في السن، وبلغ من العمر ما بلـــغ كان هذا الشارع مكاناً أخيراً ليلفظ أنفاسه فـــيه بيـــنما كان يهمُّ ليقطعه ليصل إلى مكتب مجلـــة الـــثقافة في برج دمشق، ويجلس بين إخـــوانه وأصـــدقائه مـــن الكـــتاب والباحثين والمثقفين، وذلك في حادث سير مؤلم في ٢٥/٢/٢٠٠٣ بعـــد أن عـــاش أكثـــر مـــن أربعة وثمانـــين عامـــاً قضاها بين الأوراق والكتب، والمجلات والصحف.

وكان لنبأ وفاته وقع كبير لدى عارفيه ومحبـــيه، فقـــد خـــدم الصحافة والثقافة نحو ســـبعين عاماً، وخسرته الساحة الثقافية أديباً وباحـــثاً وصحفياً ناجحاً. ترك فراغاً كبيراً في مكـــتب مجلـــة الـــثقافة التـــي يرأس تحريرها الأستاذ مدحة عكاش، حيث كان العطري هادئاً، مبتسماً، منزوياً في مكان له لا يكاد يجلس إلاّ فيه.

رحمه الله، وجزاه عن الصحافة خيراً.




طابا.. طابا..

شعر: نائلة الإمام

٤٥ ألف إسرائيلي أمضوا إجازة عيدهم في طابا..!!!!!!!!

طابتْ لكمْ ظلاًّ وماءْ
فلْتدخلوها في سلامٍ آمنينْ
ولتنعموا بالصفوِ
بالسحرِ الحلالْ
بالدفءِ في حُضْنِ الرمالْ
ولْتغسلوا في بحرِها أدرانَكُمْ

*   *   *

فَراشةُ الشطآنِ
خَضراءُ الدِّمنْ
طابا اللعوبُ الآسره
منَ غيرِ ما جفنٍ يرفُّ
وذاكره
لا تسألُ العشاقَ عن أسمائِهم
ما يومُهمْ؟
ما أمسُهمْ؟
ما الآخره؟

*   *   *

بثَديِها طابا تجوعُ وتشبعُ
من خُبزنا
من لحمِ أطفالٍ لنا
تُعدُّ للضيفانِ مأدبةَ العشاءْ
وتصبُّ من دمعِ الثكالى
دمّهنَّ وتشربُ
المجدُ للزيتونِ
للعيدِ السعيدْ
من أينَ هاتيكَ الجموعْ؟!!!!
تَهْمي كأسرابِ الجرادْ
تدمي الفؤادْ
موسى يشقَ البر
في شوقِ المعادْ







قلبَ الثرى
يا ليتَ للبرّاقِ عيناً
فترى
بالأمسِ قد سرقوا الحُليَّ لعِجْلِهمْ
واليومَ ماذا يسرقونْ؟!!!
يا ليلُ أين المُخبرونْ؟!!!
أين العيونْ؟!!!
أين الكلابُ الدَربه؟!!!
أين الوجوهُ التَربه؟!!!
أين الزبانيةُ العَسَسْ؟!!!
أين الخفَرْ؟!!!
أين الجلاوذةُ الخفَرْ؟!!!
ما أهونَ اليومَ العبورْ!!!
تأشيرةُ الذُلِّ جوازٌ للمرورْ
أنْعمْ بها!!!
قد بُوركَ الصفحُ الجميلْ
من بعدِ ما ليلٍ طويلْ
هوتِ الحدودْ
يَهْنيكَ يا عبدَ الوَدودْ *
يَهْنيكَ يا عبدَ الوَدودْ

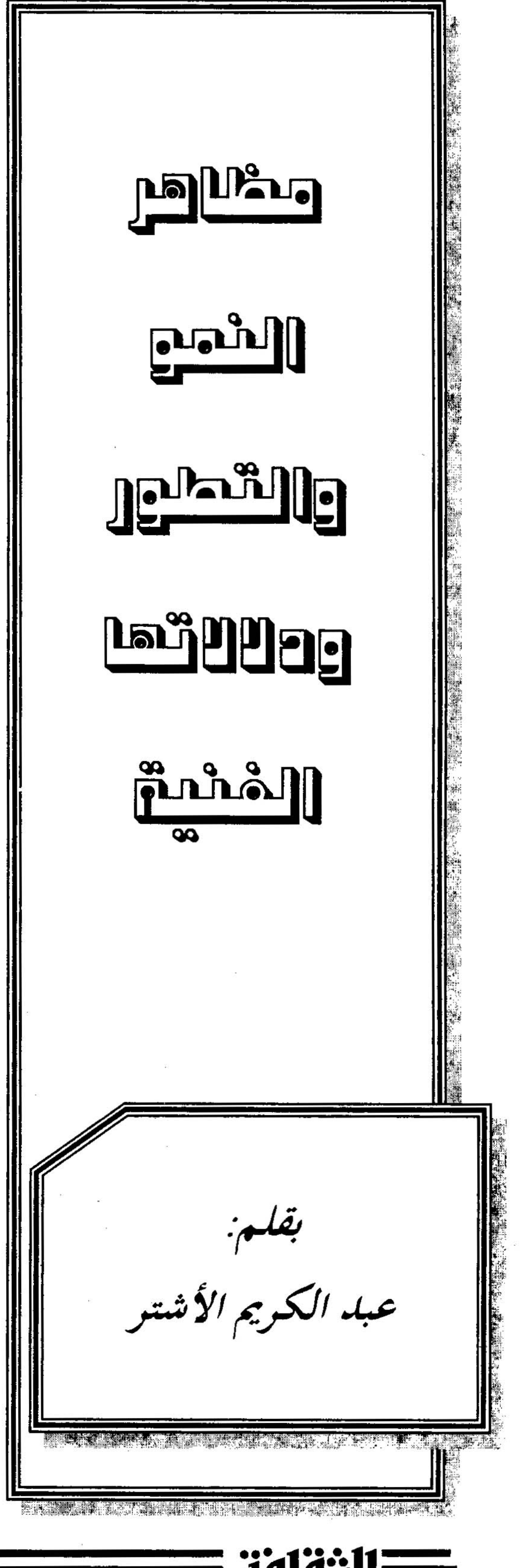
* * *

طابا تَلُمُّ رفات ثأرها
يدفُنُ التاريخُ رأسَهُ
في جِراب الرمل
في زَبَدِ البحارْ
يا دمعَهُ المكنون
في جَفْنِ المحَارْ
نَسيَ الوقارَ وسمْتَهُ
نَسيَ الوقارْ
يهشُ للضيفانِ يرقصْ
رقصةَ العصفورِ في وَحْلِ الإسارْ
ويبيعُ للسيَّاحِ أحجارَ الهرمْ
(مَنْشيَّةَ البكْري)
وأصدافَ الخليلْ
ووردةً حمراءَ من بحرِ البقرْ

* * *

بدويةً طابا هوت
للقاعِ في شَركِ الحضر
في الليلِ مُثْخنةَ الجراحْ
في حانةٍ للبحرِ
ثغرٌ مُستَباحْ
يؤمُّهُ الوُرّادُ
مغدىً ومَراحْ
في حكمةِ جوفاءَ كمْ هزئَتْ بها
للثأرِ للشرفِ الرفيعْ
للعار
للعِرضِ المُباحْ



تغطي الرواية مرحلة من الزمان حافلة من عمر المجتمع المصري الحديث، مرحلة حادة، ذات مفارق سياسية وفكرية خطيرة، كان المجتمع المصري خلالها يعاني آلام الحمل والمخاض، والإجهاض أحياناً. فنحن على اعتبار ثورة ١٩، والاحتلال الإنجليزي ترشح منه ذكريات ثورة عرابي الخاسرة، والجنود الأستراليون يملئون الطرقات، من حول الأزبكية، ويسدون منافذ الأحياء الشعبية. ويصادرون الرجال العائدين إلى بيوتهم في الليل. وسعد زغلول رمز النضال، يترجم هذا الغليان إنذارات حيناً، وتهديدات حيناً، وتمردا ونفياً ومفاوضات، ثم ثورة دامية وشهداء ومآتم.

ثم كان المجتمع المصري، خلال ذلك، يعاني صراعاً نفسياً حاداً، توشك أن تنبثق عنه أحوال جديدة في الشعور والعادات وطرق العيش، فتزول معالم ونماذج بشرية، تمثل مرحلة اجتماعية مستهلكة، وتنمو معالم ونماذج أخرى أكثر استجابة للمرحلة الاجتماعية الجديدة. فقد كان (أحمد عبد الجواد) – وهو عميد أسرة عبد الجواد – التي تمثل شخصياتها النامية، الحياة المتطورة في هذه المرحلة الطويلة، كان هذا الرجل يفسر حياته في البيت والدكان ومجالس اللهو، والمجون، ومقامات العبادة، تفسير يخلو من الشعور بالاثم ومن الشعور بالكبت، على حد معاً.

وهي بالرغم من هذا التناقض العجيب في السلوك تسمو على الصراع، وتحتفظ بوحدتها. ولكن حياة متطورة أخرى تنبثق من

صلبه، هي (كمال) ابنه، تختلف تجاربه وثقافته والمرحلة التاريخية التي يعيشها ويحاول تفسيرها. فيعجز عن جمع عناصر الصراع هذه، والثبات لها في وحدة نفسية سليمة. ويخرج إلى تفسير حياته تفسيراً آخر، أكثر ائتلافاً مع طبيعة المرحلة الفكرية العنيفة الدقيقة التي دفع فيها.

ثم كان المجتمع المصري - بعد هذا كله - مضطراً أن يستقبل هذا الغزو الفكري المتدافع، فيستجيب له أو ينازله. ويصور هذه الاستجابات شخصيات تفسر حياتها تفسيراً إيجابياً أو سلبياً ملائماً لطبيعة استجابتها. ويمثل ذلك أحفاد (أحمد عبد الجواد) وبعض أبنائه.

ومظاهر الحياة المادية في هذه المرحلة، تخضع بدورها للتطور فتزول أماكن ومدارس ومقاه تحت الأرض وقصور وطرق وتربيعات وفوانيس. وتنشأ عمارات ضخمة ومقاه فوق سطح الأرض. وتتوسع الطرق، وتسطع الكهرباء.

وسأحاول هنا أن أشير إلى بعض مظاهر النمو والتطور في بعض الشخصيات الكبيرة وفي بعض مظاهر الحياة المادية والفكرية.

شخصيات الرواية هي أفراد أسرة (عبد الجواد) المذكورة، وعلى رأسها رجلها (أحمد بن عبد الجواد) وزوجه (أمينة)، وأولادهما:

فهمي وياسين وكمال وخديجة وعائشة.

والأحفاد:

أحمد وعبد المنعم ونعيمة ورضوان وكريمة.

والخادمة الأمينة أم حنفي.

هذه هي النماذج الكبيرة. وهناك أقرباء الأسرة وأصدقاؤها:

زبيدة وجليلة (العالمتان) خليلتا أحمد بن عبد الجواد. وجميل الحمزاوي وكيله في المتجر. ومحمد عفت وعلي عبد الرحيم وابراهيم الفا - أصدقاؤه المقربين - وزنوبة العالمة، خليلة أحمد عبد الجواد وابنه ياسين، ثم زوجه. وابراهيم شوكت وأخوه خليل زوجا خديجة وعائشة. وعائدة فتاة (كمال) وملاكه.

وتبدو - في الظل - شخصيات أخرى غنية، تساعد في تطوير الأحداث، مثل شخصية مريم فتاة فهمي الشهيد في ثورة ١٩، ثم زوج ياسين ومطلقته من بعد. وأمها اللعوب المستعرة. والشيخ متولي عبد الصمد، صورة المجتمع المسكين العاجز المتعلق بأهداب الإله. وحسين شداد ورياض قلدس صديقا كمال.

وعبد الرحيم باشا عسيس الزعيم السياسي. وفؤاد حمزاوي صديق كمال وابن وكيل أبيه في المتجر. وسوسن حماد فتاة أحمد (حفيد غبن عبد الجواد) وزوجه.

وقد كان تفاعل هذه الشخصيات مع أحداث الرواية تفاعلاً حاراً، أنمتها ونمت معها، فتطورت في سلوكها وتفكيرها ومظهرها، واحتفظت كل منها - مع هذا - بأصالتها وطعمها الإنساني المتميز.

فأما (أحمد بن عبد الجواد)، فهو - في مطلع الرواية - حوالي عام ١٩١٧[١]،

---

[١] وقد أعطى الكاتب هذا الخط الزمني في عفوية ومهارة رائعتين في حوار البطل لنفسه.

رجل شرقي، حديد الإرادة في البيت. يرى من حقه أن يعيش كما يريد. يتسع ضميره لمجالس اللهو والمجون خارج البيت، حتى إذا عاد، مع خيوط الفجر الأولى، انقلب رجلاً آخر، رهيباً شيئاً ما، وقدراً رزيناً جباراً. يقول لزوجه:

"أنا رجل، الآمر الناهي، لا أقبل على سلوكي أية ملاحظة، وما عليك إلا الطاعة. فحاذري أن تدفعيني إلى تأديبك.."

ويسأل عن الأولاد:

"وكمال ..! إياك أن تستري على شيطنته..!"

فتقول زوجه بصوتها الخاشع:

- إنه يلتزم أوامر أبيه..!

فإذا جلس إلى الطعام سأل ابنه:

- غسلت يديك..؟

فإذا أجابه بالإيجاب، قال له آمراً: "أرنيهما"

فيبسط الغلام كفيه وهو يزدرد ريقه فرقاً...

وكانت سن (أحمد عبد الجواد) حينذاك الخامسة والأربعين، ((لم يزل يتمتع بحيوية فياضة مشبوبة))... ((لم يهن إحساسه بالشباب ولا تراخى..))

فأما الوجه الآخر من حياته، وجه اللهو والمجون، فقد بلغت ثقته بنفسه ((حد الإعتقاد بأنه خير الرجال قوة وبهاء وكياسة..!!)) إذا نظر في المرأة _ وهو في بيتها - (جرى بصره على جسمها في عجلة ونهم كما يجري الفأر على جوال أرز ليجد لنفسه منفذاً) ويقول لها:

"بجسدي عفاريت من نوع آخر، لا يجدي معها البخور..!"

ويغيب في مجلس الشراب عن نفسه (فتهفو إليه أنفاس السلطانة بين اللفتة واللفتة..)

ثم تتابع الأحداث، وتشب ثورة ١٩، ويستشهد فهمي ابنه، فينقطع (أحمد عبد الجواد) عن اللهو والشراب خمس سنين. ويعمل في جسمه الألم. ولكن الانطلاق خط أصيل من خطوط شخصيته، فإذا دعاه أصدقاؤه القدامى إلى ليلة مجون، استجاب لهم على استحياء ولكن.. لقد سار به قطار الزمن شوطاً طويلاً، فإذا وضعه، وضعه في غير المحطة التي وقف عندها:

قالت سلطانة في تعليل غيبته:

"بدا لي أنه ربما كان حصل عنده ضعف مما يدرك الكهول أمثاله، فاعتل بالحزن واختفى...!"

ثم بدأ يميل إلى بنت أخت خليلته زبيدة، كأنما يريد أن يشرد بها أيامه الشابة، فهو يخاطبها ذاكراً أيامه الأولى:

"تلك أيام خلت، ما ألطفها..! كنت طفلة..!"

وقد كانت هذه الصغيرة عنده في مقام الجارية، فهي (احتياطي لا بأس به، يرجع إليه عند الضرورة). وهو (لو أشار إليها بإصبعه، لطارت إليه ولزقت فيه بالغرا..!)

ولكن الجارية الصغيرة، تعرض عن أحمد عبد الجواد وتعده..! وتقول له بصوت ضاحك:

- هل تقرا الكف يا سيدنا الشيخ..؟

ويقول لها:

- يــا بنت الحلال..! لا تضيعي الوقت الغالي في الكلام.

فتجيبـه وهــي تهـز رأسها في زهد ودلال:

- بـل قل لا تضيعي الوقت الغالي مع الكهول..!

ثـم لا تستجيب له حتى يعدها بشراء ذهـبة علـى النـيل لـسكناها، عـدا النفقات الأخرى..! بل كادت تدفع به يوماً - في سبيل أن تلين - إلى أن يرتكب الزواج منها ..! تلك أسهم الشيوخ في سباق القلوب..!!

فأما في البيت، فقد انتقل الدور الأعلى جميعه إلى الدور الأول تيسيراً له، لأن قلبه (لم يعـد يسعفه على ارتقاء السلم العالي) وهو إذا تـبع زوجـه، تـبعها (فـي هالـة من وقار الـشيخوخة). وأصـبح (جـو السلم شديد في الرطوبة) فما ألعن الشتاء..!

وقـد رد زوجه يوماً إلى أهلها، لأنها زارت الحـسين فـي غيبته. ولكنه الآن يقول لها:

- أراهــن أنـك زرت الحسين كالعادة رغم هذا البرد.

ويخاطب ابنه كمالا، بقوله:

- أين كنت يا أستاذ..؟

(وكـان كمال يحب هذه اللهجة الودية اللطـيفة، التـي لـم يحـظ بهـا إلا بعد عمر طـويل...) ولكن (ليس مما يهون أن يرى أباه في وهنه بعد سطوة وجبروت...)

ثـم انتهى إلى ألا يتجاوز حدود عالمه أطراف الحشية: علـيها (يرقد نهاراً وينام ليلاً ويتناول طعامــه، ويقضي حاجته!)... (وفي هذا البيت الذي استكان عمره لإرادته المطلقة، غدا ينظر فـلا يلقـي إلا نظرات الرثاء، أو يرجو فيعاتب كالأطفــال...!)، (ولمــا ذهب الأصدقاء، اتخذ الرجل من كمال صديقاً. ولعله فاجأه بصداقته. لـم يعد الأب الذي عهده، وغدا صديقا يناجيه، ويتشوق إلى مناجاته..).

هذا (كمال) الذي كان يرتجف من أبيه فـرقا! وأما أمينة زوج أحمد عبد الجواد، فقد بـدأت الـرواية وهــي فـي الأربعين، (تبدو كالنحيفة. ولكن جسمها بض ممتلئ في حدوده الـضيقة، لطيف التنسيق والتبويب). ثم قاربت الـستين (فجف عودها، واشتعل رأسها شيبا، وبدت أكبر من ذلك بعشر).

علــى أن الـنمو الــذي نحـسه في شخـصيتي الأب والأم هيــنا بــسيطا، لأنــنا عــرفناهما بعــد أن يبس عودهما، نجده رائعا بعـيد المدى في شخصيات الرواية الفتية التي نصاحبها: فكمال فتى الأسيرة الصغيرة، عشيق الحسين، اجتاز تجارب فكرية وعاطفية قاسية، حتــى هــرب مــن الحـياة إلى مكتبه وكتبه وأبحاثــه، فأضاع إيمانه بالحياة، وأرهف شكه في قيمها جميعاً.

ونــشهد فــي آخـر الرواية رجلاً في الأربعين، سعى الشيب إليه، مخفق الحب، تائه الهدف، ضائع النفس، لا يكاد يؤمن بشيء..!

* * *

فأمــا تطور الحياة في الرواية، فتعبر عــنه الأحـداث النامـية، المتعاقبة، الأحداث السياسية:

ثورات، مظاهرات، مفاوضات، حرب عالمية، غارات، مفاجآت حربية.

والأحداث الاجتماعية:

إفلاس أسرة شداد بعد جاه وعز، ارتقاء أسرة حمزاوي بعد ضعة، أفول نجم مطربات والتماع نجم مطربات أخريات، اضطرام الأوساط الشعبية بتأثرها بالأحداث السياسية.

والأحداث النفسية:

تجربة ياسين المريرة في أمه الخاطئة، إحقاق كمال في حبه عائدة، نجاح رضوان في حياته، إنتهاء عميد الأسرة إلى التفكير بالزواج من عالمته..!، زواج ياسين من خليلته وخليلة أبيه، وصول ياسين إلى أم زوجه (مريم)، ضياع معنى قبر الحسين في نفس كمال، كشف الأولاد عن واقع الأب في مجونه ولهوه، وازدواج شخصيته...

والأحداث الفكرية:

الغزو الفكري الأوروبي، اعتناق أحمد للماركسية، نشوء فكرة الأخوان المسلمين، نضج شخصيات الرواية المتأخرة، ووصولها إلى تفسير حياتها تفسيراً إيجابياً سليماً، ضياع إيمان كمال.

(نموذج الأمة الحائرة الهاربة، الشاكسة في كل شيء..)

والأحياء المادية:

تغير معالم الأحياء والقصور، ومظاهر الشخصيات.

* * *

فنحن نرى أن التفاعل الذي تم بين الشخصيات والأحداث ومظاهر الحياة كلها في الرواية نشأ عنه نمو حقيقي حي، بحيث أصبح كل جيل من أجيال الأسرة (أسرة عبد الجواد) يتميز من سابقه ولا حقه، فتتحدد له خصائص شاخصة في الفكر والوجدان والسلوك والمظهر. وقد كان التعبير الذي اختاره الكاتب عن هذا التميز تفرق هذه الأجيال في (بين القصرين) و(قصر الشوق) و(السكرية) وهي الأحياء التي توزعها أفراد السرة النامية.

ومن هنا تعد ثلاثية نجيب محفوظ وثيقة تاريخية حية تصور مرحلة طويلة من عمر المجتمع المصري، بما قام في هذه المرحلة من تطور ونمو شملا الحياة والأحياء، إلى جانب قيمتها الأدبية البالغة.

وما أعرف حساً الزم للروائي من حس النمو الزمني الذي يرصد مظاهر التطور والتكامل ويكسوها لحماً وعصباً من لحم أبطاله وعصبهم حتى كأنه يعيد دورة الحياة من جديد في مظاهرها المتشابكة بحيث يتصل الأحياء بالأموات وتنحسر الساعة القائمة عن أعمار سابقة وتشف عن أعمار لاحقة.

ومن هنا تكون حياة الرواية ووعيها لواقعها وقدرتها على تصويره وتتبع أصوله وفروعه وتذوق نسغ الحياة فيه.

وقد أتيح ذلك لنجيب محفوظ في الثلاثية على أروع مثال.



عندما ولد جنكيز خان، لم يكن ينتظر رأسه تاج من ذهب، فقد كان والده فقيراً، لا يحترمه. وكانت أمه امرأة كهلة، حزينة العينين، لم تضحك مرة واحدة من القلب.

وقضى جنكيز خان طفولته في الأزقة، يلعب بالطين والحجارة. لكنه عندما أصبح شاباً، توج ملكاً لأن الجوع عذّبه أمداً طويلاً، ولم يهزم حبه للشعر الشبيه بضحكة طفل. وكان دائم الابتسام رغم أن رغبة في البكاء تداهمه أحياناً دون سبب. ولقد أحب جنكيز خان الصبية الوديعة التي اختيرت لكي تكون أماً لأطفال لم يأتوا بعد. وعندما تلاقى جسداهما لأول مرة في ليلة من الليالي، تشبثت الصبية به، وشدته إليها بضراوة، وأحس جنكيز خان أن جسدها حيوان له آلاف الأفواه والأنياب والمخالب.

وغادر جنكيز خان مخدعه في الصباح، متجهم الوجه بينما الصبية مرتمية على السرير، وقد أغمد في صدرها خنجر ذو نصل طويل.

وظل جنكيز خان صامتاً مكتئبا طوال أيام كثيرة، يتجول في أرجاء قصره كشبح قاتم بلا رأس. وكان وزراؤه وأعوانه يرقبونه بقلق وحيرة، فقد اعتادوا الخضوع لمشيئة من اختاروه حاكما عليهم.

ووقف جنكيز خان ذات يوم بين وزرائه وأعوانه، وكان كشجرة مقتلعة من

ترابها، ومثبتة في الفراغ بشكل سحري. وتكلم مصدراً أوامره إلى قواد جيوشه بالمسير والانطلاق عبر العالم وهدم المدائن المنتشرة على وجه الأرض.

وكان ثمة مدينة صغيرة بلا أسوار، أهلها يؤمنون أن الله موجود في كل مكان، ومقتنعون أن الله خلق من الملائكة عدداً لا يحصى، والملائكة من نور، ولهم أجنحة بيضاء، ولا تراهم عيون البشر. ويخضع كل شخص حي لمراقبة اثنين من الملائكة، يسجلان حسناته ومساوئه. وعندما يموت الشخص، توضع المساوئ والحسنات في كفتي ميزان، والكفة الراجحة تقود الشخص إلى جهنم أو إلى الجنة. وجهنم نار محرقة تعذب دون موت، والجنة مكان جميل مكتظ بالأشجار الخضراء والنساء الجميلات وأنهر العسل والخمر واللبن.

وكان أهل المدينة مغرمين بالنراجيل، وتهتز رؤوسهم بنشوة لحظة تضرب يد ما على جلد دربكة.

وكانوا يركبون السيارات لأنهم لم يكتشفوا الخيول بعد، وكانت الخيول ماتزال متوحشة تعدو عبر البراري.

ولم تجد جيوش جنكيز خان صعوبة كبرى في اقتحام المدينة. وقتلت بضعة آلاف من السكان. وتطلع جنكيز خان بشغف على جثث المشنوقين وكأنها نجوم متألقة.

وفتشت المنازل، وجمع الأطفال ثم ذبحوا على ضفة نهر، مياهه فقد لونها.

ومرت أشهر عديدة حافلة بالضجيج والمرح وصراخ، ثم ابتدأ الهدوء يهيمن شيئاً فشيئاً، واستعاد أهل المدينة حبهم للنراجيل والدربكة والحديث عن الفضائح وعن الله الموجود في كل مكان.

وبدأ الضجر يستولي على جنكيز خان، وتغلغل في لحمه كمرض مخيف وغامض، وقد دفعه ذات يوم لأن ينبذ تاجه وملابسه، ويتسلل متنكراً، ويطوف المدينة كثعبان يفتش عن لحم يصطدم به. وحين أتعبه التجوال دلف إلى داخل مقهى، رواده مزيج من الشبان والفتيات وطلب فنجان قهوة. وكان ثمة أغنية تصعد من صندوق الموسيقى القابع في ركن من أركان المقهى.

وأخذ جنكيز خان يحتسي القهوة، ويدخن بينما كان المغني رجلاً يعول بصوت خشن جريح:

- سأموت إذ تركتني..

وطفق جنكيز خان ينفث دخان سيجارته، ويتأمل بفضول فتاة جميلة، قريبة منه. وكانت تهز قدمها بانسجام مع إيقاع الموسيقى الحارة، وكانت يداها مرتميتين على سطح الطاولة الحديدية، وكانتا صغيرتين شديدتي البياض.

وحملق جنكيز خان في يديه الكبيرتين الخشنتين، وانهمر أسى غامض في دمه، واشتد حنينه لسماع قصائد ينشدها صوت مبحوح أجش، وأحس أن قلبه عصفور بلا جناحين، يتوق لأن يطير راحلاً نحو البيت الذي ولد فيه، وكان بيتا جدرانه من تراب، وتنتصب شجرة نارنج في باحته. وتنهد جنكيز خان بارتياح، وشعر شيئاً فشيئاً بأن طوفان من دماء الأطفال ينأى عنه، وتلاشت جثث المشنوقين من مخيلته.

وغادر المقهى وهو متأكد من أن جنكيز خان السفاح مات نهائياً، ودفن في مكان قصي ومجهول، وستظل جيوشه تنتظره دون جدوى.

وانتظرت جيوشه، وبحثت عنه غير أنه اختبأ بمهارة فلم تعثر عليه، واضطرت أخيراً إلى الرحيل. وراقبها جنكيز خان ببهجة بينما كان الغبار يتصاعد خلفها ثم انطلق عبر الشوارع وكأنه طفل ولد قبل لحظات، فهو سيكون في الأيام المقبلة رجلا ما مجهولا، يحيا في مدينة صغيرة. وسيجد عملاً. وسيقرأ الشعر في الأماسي. وسيحلم، ويحب فتاة كطفلة كبيرة. وستكون محبة للياسمين والصيف، وسيكون جسدها ضحكة عذبة، وسيعيشان معاً، وستنجب أطفالاً، سيحبهم لأنهم أولادها. وسيساوم البائعين بحماس حين يريد شراء حاجيات البيت.

وكف جنكيز خان عن التخيل إذ استرعى انتباهه حشد من الناس، يتزاحمون حول باب أحد البيوت، فاندسّ بينهم، فإذا بامرأة تعول وتولول وهي تشير بيدها إلى طفل صغير ملقى على عتبة الباب.

وأمعن جنكيز خان النظر إلى الطفل الميت فوجد أن وجهه وأطرافه قد قرضتها الجرذان، فتراجع مذعوراً، وأفلت من الزحام وهو يكبت رغبة ضارية في البكاء ممتزجة بغضب جارف أهوج. واندفع خارج المدينة فقد رجع جنكيز خان إلى الحياة.

وتعالى هتاف الفرح من جنوده حين أبصروه قادماً. وارتدى جنكيز خان دروعه، ووضع على رأسه خوذة من فولاذ رامقاً بهزء تاجه الذهبي. ولوح بسيفه آمرا جيوشه بالمسير إلى أمام.

وعندما كان يصغي إلى ضجيج رجاله الشبيه بإعصار غاضب، خيل إليه أن يبصر طوفان فولاذ مصهور، يجتاح الأرض كلها، وحينئذ ابتسم بتشفٍ.

وكانت الجنة ماتزال مكاناً جميلا للغاية مكتظاً بالأشجار الخضراء والنساء الجميلات وأنهر العسل والخمر واللبن.




رسالة ..

شعر: أ. جابر خير بك

بعـــــثت إلــــي رســــالة
فـــيها الكـــلام معطــــر..
وتـــصبّ فـــيها شــــوقها
مـــنه الهـــوى يتفجّـــر
قلـــمٌ يخـــط حــــروفها
بهمــــوم قلـــب يقطـــر
فأتــــى البـــيان ملــــوعاً
وبكـــت علـــيه الأســـطر
وتـــسرّبتْ آهاتُهـــــا
بدمــــي وراحـــتْ تعبـــر
فهـــتفت شـــوقاً: ليـــتها
بعـــد الرســـالة تخطـــر
لأبـــثّها مـــن خافقــــي
وجـــداً يـــشبّ ويكبـــر
لكـــنها مـــا بـــادرت
وبقـــيت وحـــدي أســـهر
مـــتوقعاً خطـــواتها
وبدمـــع عينــــي أســـكر
فإلــــى متــــى يـــا حلوتــــي
تتجاهلـــين وأصـــبر
وتلوعـــين عواطفــــي
لـــيت الرســـائل تثمـــر






بعد العاصفه..

شعر: د. عبد السلام العجيلي

كل الذي أبقته تلك العاصفه ... هذي السحابة في السماء الصائفه

ألقت على ألق النجوم ذيولها ... فتهافتت أنوارها المتراجفه

وعلى مياه النهر مدت ظلها ... فتسللت في شاطئيه خائفه

من أطفأ البرق الذي هتك الدجى ... ومضا ومن لجم الرعود القاصفه

والريح هاتيك التي أعصارها ... هز الدنى، أنى ترامت واجفه؟..

ان الرياح على الأديم تبعثرت ... وتمزقت نسما قواها الجارفه

أما الرمال فإنها آبت إلى ... كثبانها تحت الدجى المتكاثفه

وغدا سينبلج الصباح وتلتقي ... زمر الطيور على الأشعة هاتفه

ويسيل ماء النهر معتذراً إلى ... شطئانه من اثم أمس السالفه

وغداً سينطلق الرعاة كأنما ... تلك الزوابع لم تجلجل عاصفه

حتى السحابة في الصباح ستنجلي ... وتمور طلا في الجنان الوارفه

يا قلبي المحزون عاصفة مضت ... فإلى متى تشقى بهذي العاطفه

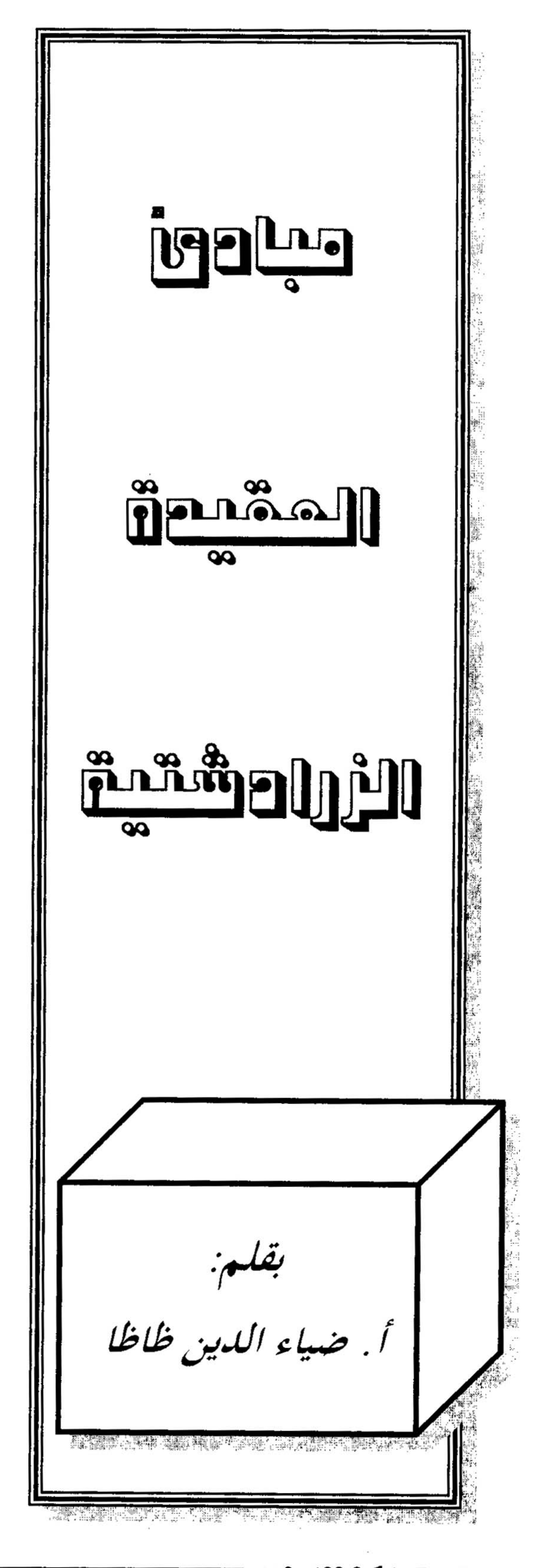
أو ما ترى الإصباح جاءت بلسما ... للمسهدين على الكلوم النازفه

لملم جراحك في صباحك وابتسم ... للفجر، إذ غسل المنايا الراعفه

وامسح دموعك في الظلام سكبتها ... لا تبصر الأنوار عينك ذارفه







أصبح زرادشت شخصية أسطورية في التاريخ الفارسي، وتروي الأساطير عن ولادته خوارق أشبه ما تكون بالمعجزات كباقي الديانات السماوية الأخرى..!

لكن التقاليد التي نسجت فيما بعد من حوله، تروي أن الوليد بعد أن شب وترعرع أحب الحكمة والصلاح، واعتزل الناس، وآثر أن يعيش حياة متقشفة في برية الجبل، واختار طعامه الجبن وثمار الأرض. (وأخفق الشيطان في إغوائه) وتجلى له أهورا مزدا ووضع بين يديه كتاب العلم والحكمة (أفستا) (الأبستاق عند العرب) وأمره أن يعظ الناس وأن يدعوهم إلى الإيمان به. ولكنه جوبه بمعارضة قوية، وتعرَّضَ للإضطهاد.

أما الوسط الذي تُنسب إليه أسفار (كاتها) وهي الكتب المنسوبة إلى النبي زرادشت من الأفستا فهو مروج ومراعي إيران الشرقية، وهي أقرب ما تكون إلى حوض السند وثقافة الهند الغنية التي ظهرت في ذلك العصر، فقد برزت حركة عقلية وفكرية هامة هي الأولى من نوعها خارج نطاق الديانات الشرقية المرتبطة بالدول وبمؤسساتها في مصر وبلاد الرافدين وسورية وفلسطين.

ومنذ أن سُميَّت القوى والمفهومات التي عينتها الحركة الزرادشتية بأسمائها بقيت موضوعات للتفكير ولعرض وجهات النظر في كل المدارس الفكرية، والعقائد والفلسفات التي ظهرت بعدئذ: الحكمة والعدالة والعقل والضمير والخير والشر.

والمعتقدات الزرادشتية تناسخت عبر العصور، فمليارات البشر يؤمنون بما بشر به النبي والفيلسوف زرادشت قبل ألف عام من الميلاد، وكل من يمارس طقساً دينياً إنما يعود في أصوله إلى الشريعة الزرادشتية، فزرادشت أهم شخصية دينية أثّرت على مجرى الحياة الدينية للإنسان عبر التاريخ.

إن الزرادشتية انتشرت ودخلت نسيج جميع الديانات اللاحقة في منطقة الشرق القديم، ومارست عليها تأثيراً واضحاً ومازالت بعض أفكارها فاعلة ويتمثل ميراثها بـ:

١- في مقابل التاريخ المفتوح للديانات الشرق أوسطية قدّمت الزرادشتية مفهوماً لتاريخ ذي معنى يسعى أبداً نحو غاية مثلى يحققها الكون والمجتمع الإنساني.

٢- الطبيعة الأخلاقية للوجود، فالأخلاق ليست سلوكاً فردياً بل هي مبدأ مصنوع من صميم الخليقة، الكون قابل للإصلاح من خلال فعالية الإنسان.

٣- وجدانية الإله. كانت الزرادشتية أول من قدّم مفهوماً صافياً عن التوحيد، وصاغ إيديولوجية متماسكة رغم وجود اتجاهات توحيدية سابقة لها.

٤- الإله الأعلى أخلاقي (أهورا مزدا) وخيّر لا يصدر عنه إلاّ ما هو طيب، بل هو الخير نفسه، وعمل الخير الإنساني ليس تلبية لأمر إلهي، بل دعم للإله ضد الشيطان (أهريمن).

٥- أصل الشر (أهريمن) كانت الزرادشتية أول من تصوّر وجود مبدأ للشر هو بمثابة نموذج لكل الشرور.

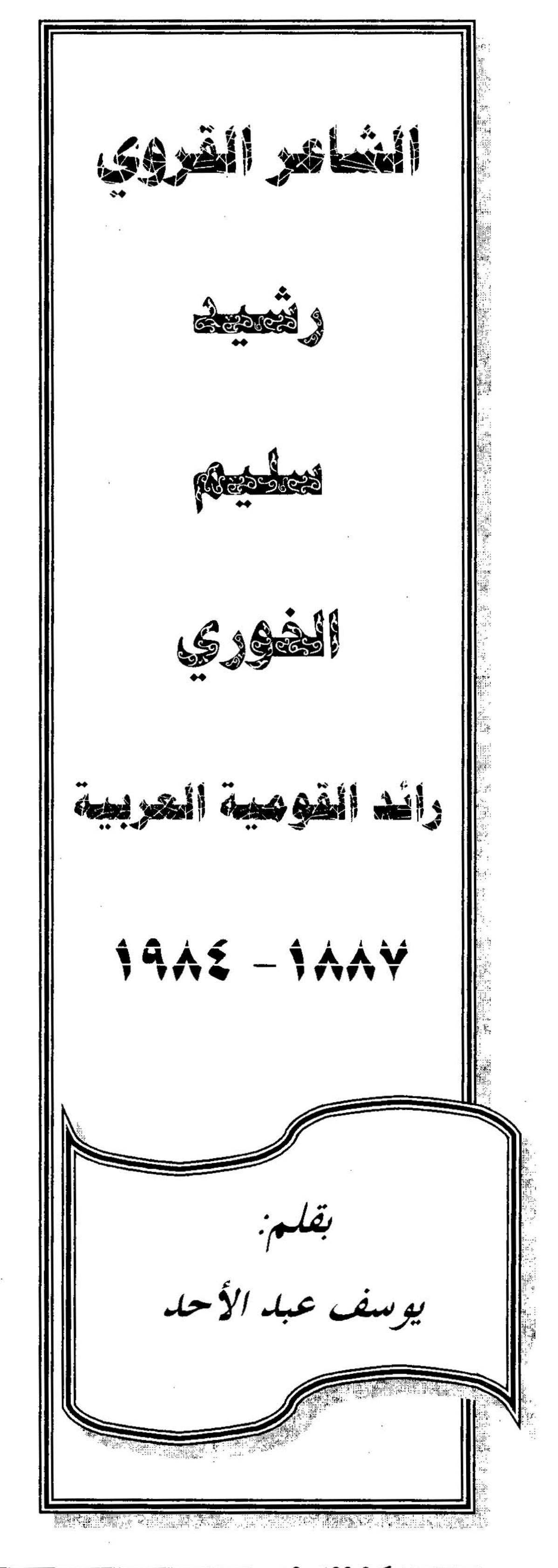
٦- حرية الإنسان لم يتدخل أهورا مزدا عندما اختار أنكرمينو (الشيطان) الشر، لأنه بذلك سيعاكس مبدأ الحرية، ولأنه يعرف أن الحرية التي أدت إلى ظهور الشر هي التي ستعمل على تدميره.

٧- لأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني يظهر مفهوم عن الإنسان لا باعتباره تجمعاً لأفراد يسعى كل منهم لخلاص فردي، بل باعتباره مجتمعاً موحداً يلعب دوراً لا غنى عنه في رسم صيرورة الكون. الإنسانية هنا ليست حدثاً عابراً بل هي مركز خلق الله.

٨- المخلّص المنتظر (سأوشيان) هو نموذج للإنسان الأسمى الذي أنتجه المجتمع الإنساني ليكمّل مهمة البشرية في الصراع ضد قوى الشر.

٩- التصورات الأخروية الزرادشتية. وضعت فكرة الثواب والعقاب في السياق العام لتاريخ الكون، وربطتها بمفهوم واضح عن الحرية والمسؤولية.

١٠- القيامة: قدمت الزرادشتية لأول مرة تصوّراً واضحاً عن نهاية الزمن الدنيوي. فبعد أن تنهك قوى الشر تماماً في صراعها مع قوى الخير تأتي ساعة القضاء ليقوم عالم نقي.



الشاعر القروي آخر شعراء المهجر الجنوبي الذين نادوا بالعروبة وناضلوا من أجلها، وكرّس حياته كلّها، ونذر قلمه للدفاع عن قضايا العروبة ونصرة قضية فلسطين، وناضل من أجل الحرية والكرامة وكانت قصائده وخطبه اللاهبة تتداولها الألسنة في كافة الأقطار العربية من قبل خمس دول عربية هي: سورية، لبنان، مصر، العراق، وليبيا بالإضافة إلى الطبعة الأولى في البرازيل عام ١٩٥٢ وذلك تقديراً لمواقفه النضالية البارزة وأدبه المتميز وتكريماً لشخصيته الفذّة.

سيرة حياته

كتب الشاعر القروي سيرة حياته بقلمه ونشرها لأول مرّة في ديوانه عام ١٩٥٢ بكل دقّة كي لا تشوّه الحوادث والوقائع من قبل الباحثين والمؤرخين، وفصّل فيها مراحل حياته تفصيلاً دقيقاً تحت العناوين التالية:

مولده، نسبه، اخوته، مسقط رأسه، ظروف تكوينه، ولادته، طفولته، تعلَمه وتعليمه، أوصافه، عاهاته، حياته اليومية، شغفه بالطبيعة، شعوره الوطني، أصدقاؤه وأعداؤه، اقتصادياته، لماذا غلبت الحماسة على شعره، لماذا ومتى هاجر. كيف ودَع لبنان، الريو دي جانيرو، نظيره زين الدين، سفر أمه وأخته، مقياسه للوطنية، التعصب الوطني، وطنية العربي، اشتغاله بصنع الأدب، العروبة والبرامج والأحزاب، العروبة والأنظمة لغة العروبة، نداء ختام.

ولد الشاعر القروي في ١٧ نيسان ١٨٨٧ وهو عيد الجلاء في سورية وارتجل بهذا العيد ببيتين ولا يذكر إلا الثاني وهو:

إن فاخر الناس بأعيادهم

فعيد ميلادي عيد الجلاء

والده سليم طنوس ابن منصور بن حنا الخوري، والدته تقلا ابنة أسعد بشاره الرحباني، نزح جده أسعد وأخوه مشرف بعائلتهما من الشوير إلى قرية (البرباره) واشتغلوا بالحدادة، وهكذا كان مسقط رأس الشاعر القروي (البربارة) الواقعة على هضبة مشرفة على البحر الأبيض المتوسط بين مدينتي جبيل والبترون، ووصف قريته الجميلة بهذا البيت:

أذّن الرعد للصلاة وكبّر

وهمى الغيث للوضوء وطهّر

والعصافير صُحن الله أكبر

تعلم في مدرسة القرية وكان أستاذه الشاعر قيصر وحيد الغرزوزي، ولما بلغ الثالثة عشرة التحق بمدرسة الفنون الأمريكية في صيدا، ثم السورية الإنجيلية في بيروت واشتغل في التدريس في عدد من المدارس في طرابلس والمينا وبشمزين والوطنية وزحلة والشوير ومن هواياته العزف على العود والغناء وبرع فيهما.

هجرته

توفي والده سنة ١٩١٠ وخلّف عليه ديوناً لا يمكن إيفاؤها من راتب التعليم، فقرر الهجرة إلى البرازيل في ١٩١٣/٨/١ إلى ولاية (ميناس) وحمل الكشة وتعرض لمشقات قاسية.

ثم انتقل من ولاية ميناس (ريودي جانيرو) أثناء الحرب العالمية الأولى، وعمل في التدريس في جمعية (زهرة الإحسان).

وفي عام ١٩١٥ انتقل إلى (سان باولو) وأخذ يعمل في التدريس في بعض المدارس العربية والأجنبية.

وفي سان باولو ظهرت موهبته الشعرية وبخاصة في الشعر الوطني، وكان يلقيه في حفلات الأندية والجمعيات.

ثم عمل في الصحافة في جريدة (الرابطة) لمدة سنتين.

وعندما تأسست (العصبة الأندلسية) في البرازيل انضم إليها، ولما توفي رئيسها الأول ميشال معلوف عام ١٩٣٨ انتخبت رشيد خلفاً له.

كيف لقّب بالقروي

على أثر صدور ديوانه (الرشيديات) عام ١٩١٦ راح المرحوم نجيب قسطنطين حداد يتابع نقده في جريدته (المؤدب) وذات يوم التقى القروي بجورج حداد صاحب جريدة (القلم الحديدي) وفي يده عدد من (المؤدب) قال له: "خذ اقرأ. إنه هذه المرة سلخ جلدك سلخاً" فتناول العدد ضاحكاً وأخذ يقرأ النعوت التي نعته بها إلى أن وصل إلى قوله "من هو هذا الشاعر الـ...؟ شاعر جرن الكبة..؟ الشاعر القروي؟" فوقف عند هذا النعت الأخير واختاره أسماً له مستعاراً، وقد طغى هذا اللقب على اسمه الحقيقي وكانت أول قصيدة حملت اسمه المستعار موجهة إلى لبنان قال:

لنا وطن هلا سمعنا نحيبه

وهلا رأينا ضعفه وشحوبه

إذا كـان حب الغير فرضاً على الفتى

فكـم هـو فـرض أن يحـب قـريبه

لعينـيك يـا لبـنان قوتـي وقوّتـي

وتعرفنـي غـضّ الـشباب رطيـبه

لأنـتِ حبيبـي قـبل كـل حبيبـةٍ

وإنـي محـبٌ لا يخـون حبيـبه

حملـت صليبي قاصداً أرض موعدي

فمـن شـاء فلـيحمل ورائي صليبه

<u>حبه لدمشق</u>

لقـد أحب الشاعر القروي دمشق حباً كبيـراً، وكانـت زياراته لها متكررة، وفي كل مـرة يـزورها كانت تعقد السهرة الأدبية في بيتي، وأدعو إليها أصدقائي الشعراء والأدباء، ليـنهلوا مـن معـين شـاعرنا العبقري ما لذّ وطاب.

كانـت زيارتـه الأخيـرة لدمشق قبل وفاته بأشهر قليلة في ٥ آذار ١٩٨٤.

ومـن أعماله المتميزة "نشيد سوريا" جاء في المقطع الأول:

نحن أشبال الأسود خير
الجدود حُمر البنود
من تساموا بالفعال بين
الرجال أهل المعالي
ركبوا متن البحار إلى
الفخار قبل البحار
ملأوا الأقطار فضلاً يُجرون
عدلاً يعطون سؤلا
القرار

العلم عنوان الرشاد
العدل عمران البلاد
إنما العلمُ سراجٌ إنما العدلُ
علاجٌ وحياةٌ للعباد
يا حبذا العصر الجديد عصر
هارون الرشيد في حمى دار السلام
عصرٌ مجيد فريد
عصرٌ سعيدٌ عصر السلام

ولـم يـنس القـروي قضية فلسطين المـنكوبة والصامدة والمكافحة في الدفاع عن حقها السليب، فقد كرّس في ديوانه عدداً كبيراً من القصائد اللاهبة لنصرة فلسطين نذكر منها قصيدته في وعد بلفور المشؤوم حيث يقول:

الحـقُ ملـك ومـن وعـودكَ أكبر

فاحـسب حـساب الحـقّ يـا متجبر

عـدْ مـن تـشاء بمـا تشاء فإنما

دعـواه خاسـرةٌ ووعـدك أخـسر

فلقـد نفـوز ونحـن اضـعف أمـة

وتـؤوب مغلـوباً وأنـت الأقـدر

إن شاعرية القروي هي وليدة الشعور العمـيق، يـرقّ هذا الشعور فتسمع فيه خرير الـسواقي وأنغـام الـشحارير وحفيف أجنحة الفراشـات.. وعـندما يعـنف فإذا فيه قصف الرعود وهدير البحر وزمجرة العواصف.

ومـن أشهر قصائده (حضن الأم) فقد نظَّمها لما استشفّ سرّ الأمومة ومعاني العطف والحنان والرحمة الإنسانية فصوّر فيها شاعراً عـربياً أدخله الله النعيم ومازال يبكي لحرمانه حنان الأم. ومما جاء فيها:

العفـــو يــا مـــولاي مـــن لـــي
سـواك ومـــن ســوى الرحمن يرحم
أتيـــتك راجـــياً نقلـــي لحـــضنٍ
أحـــبّ إلـــيَّ مـــن هـــذا وأكـــرم
لحـــضن طالمـــا قـــد نمـــتُ فـــيهِ
قريـــر العـــين بـــين الـــضم والـــشمّ
أمـــا ألقـــيت رأســـك فـــوق صـــدرٍ
حـــنونٍ خافـــقٍ بمحـــبة الأم؟
فدعنـــي مـــن نعـــيم الخلـــد إنـــي
نعيمـــي بـــين ذاك الـــصدر والفـــم

عودته إلى الوطن

عـــاد نهائـــياً إلـــى الوطن ليستقر في قـــريته الجمـــيلة (البربارة) فوصل إلى ميناء اللاذقية على ظهر الباخرة (محمد علي) في ٣ آب ١٩٤٨ وكـــان في استقباله حشد كبير من الرجال، فأنشد قائلاً:

بـــنت العـــروبة هيئـــي كفنـــي
أنـــا عائـــد لأمـــوت فـــي وطنـــي
أأجـــود مـــن خلـــف الـــبحار لـــه
بالـــروح ثـــم أضـــن بالـــبدن

وعندما أصبح في الشام قال:

حـــتّام تحـــسبها أضـــغاث أحـــلام
ســـبح لـــربك وانحر.. أنت في الشام
أنـــا العـــروبة لـــي فـــي كل مملكة
إنجـــيل حـــب ولـــي قـــرآن انعـــام

وفـــاته

فـــي فجر يوم الإثنين ٢٧ آب ١٩٨٤ تـــوفاه الله في قريته (البربارة) وجرت مراسم الـــدفن التقلـــيدية العادية، وتمّ دفنه في حديقة منـــزله كمـــا حدّدها في وصيته التي كتبها في شهر تموز ١٩٧٧.

كـــان القـــروي بحـــق شاعر القومية العـــربية بمواقفه الوطنية والدفاع عن الحرية والكرامة ونصيراً للمظلوم.

أعماله المطبوعة

١- ديـــوان الـــشاعر القـــروي - ســـان بولو البرازيل ١٩٥٢ الطبعة الأولى.
- وطـــبع فـــي مصر سنة ١٩٦١ وزارة التربية والتعليم.
- وفـــي بغداد سنة ١٩٧٣ وزارة الإعلام والثقافة.
- وفي ليبيا سنة ١٩٧٧ وزارة الدولة.
- وفي لبنان سنة ١٩٧٨ دار المسيرة.
- وفـــي دمشق سنة ١٩٨٣ اتحاد الكتاب العرب وتضمن آخر منظوماته.
٢- اللاميات الثلاث - ثلاث قصائد متبادلة بينه وبين شكيب أرسلان /١٩٤٧.
٣- أدب الـــلا مبالاة - أدب الشماتة والعقوق / ١٩٥٧.
٤- أعمال القروي النثرية - دار الرائد العربي/ ١٩٨٤.
٥- كـــتاب الـــشاعر القروي / آخر الأوراق - جمع جورج طراد - دار الريس / ٢٠٠٠.




فستان حرير ..

شعر: أحمد علي حسن

موجـي.. فقـد ضـحك الحرير غـداة جللـك الحرير

هـذا المطـرز واسـمه الفسـتان، معشـوق أثـير

بـرز القـوام بـه رشـيق القـد وانتشـر العبير

وبـدت بـه الأمـواج مـن زهـر ومـن عـبق تمـور

يلـتف منسـكباً علـيك وحـول سـاقك يسـتدير

وإذا خطـوت يضـج مـن طـرب ويـأخذه الغـرور

قـد كـثفوه علـى الخصـور لتسـتدق بـه الخصـور

وبـدت ثـناياه منسـقة، تثـير وتسـتثير

وعلـى الجوانـب مـن ثـناياه تفتحـت الـزهور

هـذا الحريـري الصـناعة كـيف تعشـقه البدور

مـن ذا رآك بـه، وكلـك فـيه إشـعاع ونـور

موجـي بـه، فجمـيع هـذا الحسـن وهـاج مثـير

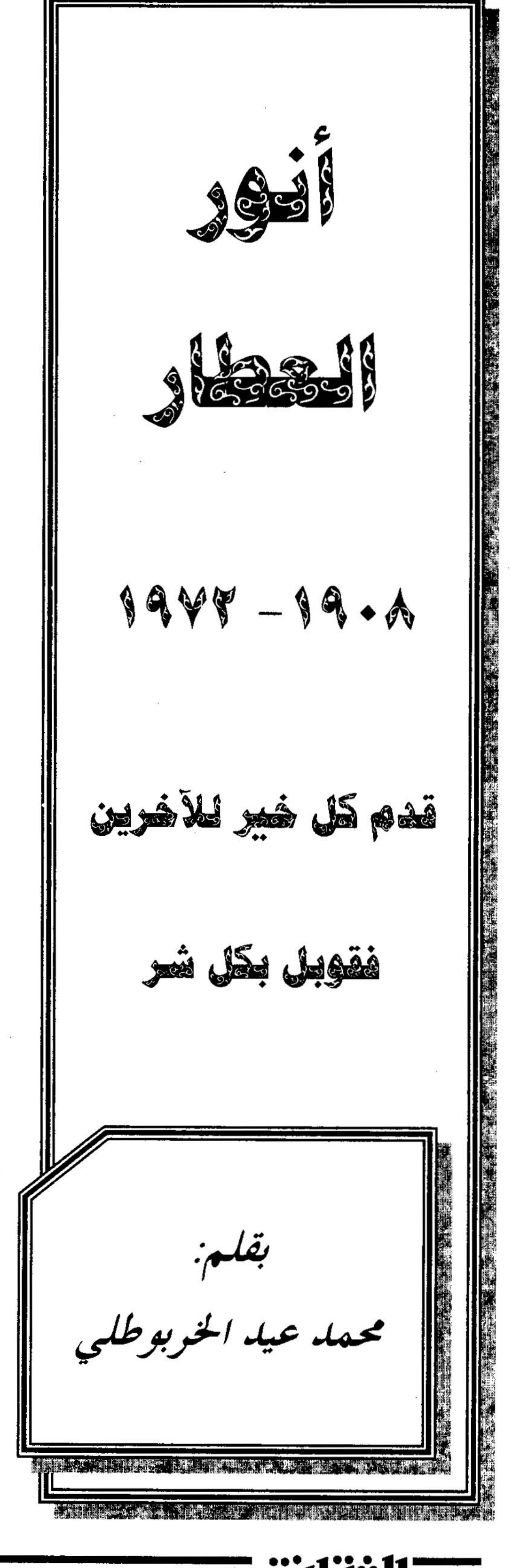






حســـن تشـــع بـــه الفـــتوة، والشـــباب بـــه يفـــور
ووراءه يتواثـــب الإلهـــام، أو يثـــب الشـــعور
طلـــي علـــي بـــه، فأنـــت.. أحـــب غانـــية وأحلـــى
وتخـــيري الغالـــي لاهـــيفك الممـــتع، فهـــو أغلـــى
أنـــا مـــا دعـــا غزلـــي هـــواك إلـــى القـــريض، وقـــال: كـــلا
فـــي وجهـــك الـــريان، لا فـــي أفقـــه قمـــري تجلـــى
وبمـــا تصـــب بـــه الأنوثـــة قـــد تفـــرد واســـتقل
ســـكر القـــريض، فقـــال: يـــا مـــرحى بموحيتـــي واهـــلا
ورنـــا إلـــيك فـــتى القـــريض يســـابق الـــنظرات عجلـــى
وكأنمـــا توحـــى هـــنالك عـــبقرية، وتملـــى
دنـــيا الحريـــر تـــرف ضـــاحكة علـــى شـــفتيك جذلـــى
وعلـــى مـــدى عينـــيك ســـلم خافقـــي هلعـــاً وصـــلى
بحـــر غرقـــت بـــه، فهـــلا ضـــاق بالأشـــلاء هـــلا
مـــن غـــير لابســـة الحريـــر لـــتاجه ســـتكون أهـــلا
مـــن غـــيرها أنـــدى ومـــن أحلـــى بـــه، وأخـــف ظـــلا
قـــل يـــا حريـــر، أصـــادق أنـــا فـــي حديـــث هـــواك، أم لا



إنه شاعر دمشق الذي مات بسنة - ١٩٧٢- كالغريب المنكر فلم يعلم بوفاته إلا بعض أصحابه وأهله ومتذوقي أدبه.

ولد أنور العطار في دمشق سنة - ١٩٠٨- في أسرة عريقة القدم معروفة بالدين والتقوى، ونشأ في حجر أبيه إلى أن دخل مدرسة دار المعلمين الابتدائية المنبثقة عن - مكتب عنبر- وهو المدرسة الثانوية الأولى في سورية، وكان شاعرنا أسمراً ناعم الصورة طويلاً، رقيق الحديث له بهجة جميلة، يظهر عليه الذكاء وتغلبه البساطة، وكان طيب القلب صافي السريرة يحدث جليسه بكل صراحة، ويدلي برأيه من غير مواربة ولا مداراة، ومن صغره بدت عليه علامات الأدب فكان يحفظ الشعر.

بداية شعره

بدأت تظهر تباشير شعره منذ دراسته وهو صغير، وصار ينشر في صحف دمشق فقرأ الناس شعراً أنيقاً، نقي الألفاظ، ديباجته صافيه، نغمته حلوة، قافيته مطمئنة، فعرف متذوقوا الشعر أن له شأناً كبيراً في تاريخ الشعر والأدب.

وكان معجباً بأعلام الشعراء الكبار كالبحتري وشوقي وكان يحفظ الكثير لهم، وهذا مما ساعده على نجاح أسلوبه عندما درس اللغة والأدب، وكانت ذاكرته قوية ففي درسه كان يستشهد بعدة أبيات من الشعر فيكون درسه كمجالس الإملاء القديمة، وقد

تأثر ببعض الشعراء المعاصرين له مثل سليم الجندي ومحمد البزم وعبد القادر المبارك، وتقلب أصدقاؤه في عدة مناصب أما هو فبقي مدرساً وبقي دخله محدوداً لا يملك سوى راتبه من تدريسه في قرية - منين - ولكنه بقي يقول الشعر ولا ينشر سوى بعض القصائد وانطلق شعره من دمشق ووصل إلى مصر ونشرت له مجلة الرسالة في أحد أعدادها قصيدة موشاة بـ - لشاعر الشباب السوري أنور العطار- وعد هذا نجاحاً كبيراً في الأوساط الأدبية، فصار شعره ينشر إلى جانب شعر إبراهيم ناجي والزهاوي والرصافي وبدوي الجبل.

وكان لشعره نكهة خاصة، كان أصيلاً في لغته، صحيحاً في أسلوبه بل لعله خير نموذج يمكن أن يتبعه الشعراء لأنه يعد مدرسة، ولم يكن يوماً متقعراً في لغته ولا متكلفاً، وشعره لم يلاحظ تأثره بأحد الشعراء الذين يحفظ لهم الكثير من شعرهم.

ولكي نعرف جمال أسلوبه الذي تميز به عن غيره لنقرأ أبياته:

ياحبيبي أفق فقد ضحك الـ
روض وأبدى جماله المحجوبا
طرب القلب فانتشى وتغنى
ومن الحب أن أعيش طروبا
وأنا الشاعر الذي يغمر الأر
واح ضحكاً وما أريم كئيبا
في فؤادي اللهيف داء قد استعـ
ـصى وجرح يَمُضُّني تعذيبا

فالسهولة وتناسق الألفاظ واطمئنان القافية كل ذلك بارز في أبياته، حتى اختياره للكلمات الشعرية يدلنا على تمكنه من لغته، ولكن إذا أردنا أن نطمئن أكثر في جمال أسلوبه فلنقرأ أبياته الرائعة في وصف لبنان التي قال فيها:

غاب لبنان في رقيق من الغيـ
ـم كما غاب في مدى اليم زورق
ضفّر الثلج والسحائب تاجا
واختفى في الضباب ثم تعلق
والروابي توسدت راحة السحـ
ـب ونامت على وشاح مرتق
والذرى البيضا في العلاء نسور
حومت تكشف الخفى المغلق
والقرى غلغلت بأخبية الغيـ
ـب وضاعت بين الغمام المنمق
غرق ملؤه فتون وسحر
ونعيم ضاق وحلم مُزوّق

إن ديباجته رائعة، وأسلوبه أكثر روعة، بالإضافة إلى الصور المحببة والأمثلة القريبة من النفس والقلب.

الغزل عند أنور العطار

عرف عنه حياؤه الشديد وهو ظاهر جلي على وجهه أو في شعره وسلوكه، هذا

الحياء منعه من الغزل الذي يبوح به معظم الشعراء إذا مروا به، وقد يصل بصاحبه إلى المجون وشاعرنا بعيد عن ذلك فهو تقي وخلقه رزين، فجاء غزله غزل الصناعة لا غزل العشق ومن حب الشاعر لا حب الموله المفتون، وهذه أبيات نرى فيها هذا اللون من الغزل المسكين:

أتدرين انك أحلاميه
وأنك أعذب أنغاميه
وأن خيالك في خاطري
يرق كزنبقة نادية
وإنك أشعاري الهامسات
بنفسي في العزلة القاسية
ذكرتك والقلب نهب الفتون
رهين الرؤى الحلوة الوافية
ولبنان يسبح في نشوة
من السحر والحب والعافية

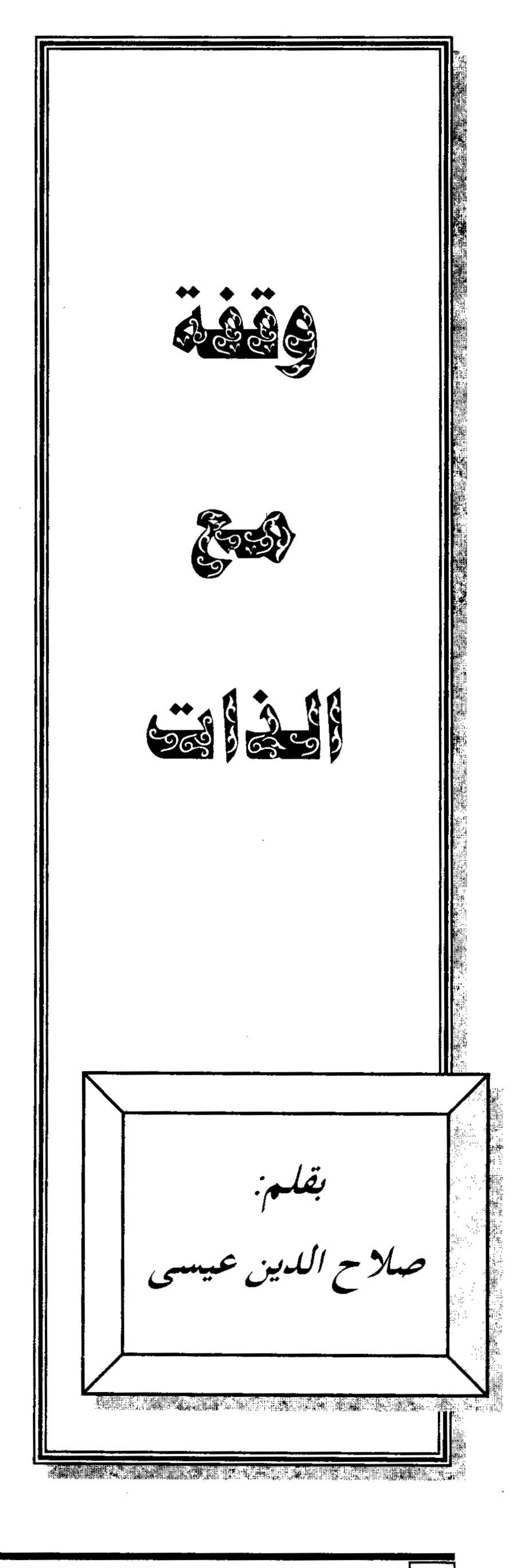
نلاحظ أن غزله لا يبعث في النفس شعوراً ولا يوقظ حساً، انه كلام يقلد فيه الشاعر غيره من الشعراء في تذكر المرأة والإشارة إليها من بعيد، والشاعر ليس محباً ولا مولعاً، وهذا الغزل يجب ألا يذكر في معرض الحب الذي يفطر القلوب ويؤجج الأحاسيس وكأنه بغزله هذا يذكرنا بغزل حافظ إبراهيم والجارم والبزم، غزل يصطنعه الشاعر مقدمة لغرض شعري آخر من وصف أو مدح أو هجاء وقد انتقل شاعرنا من غزله في هذه الأبيات إلى وصف لبنان، دون أن يترك غزله أي أثر في قارئه أو سامعه، حيث اعتمد هذا النوع في شعرهم على الإحساس المرهف الرقيق البعيد عن العنف والقسوة كما اعتمد على استقلال الأدب كل المؤثرات الغريبة عنه على عكس أدب هذه الأيام الذي كثر فيه الاقتصاد والعلم والفلسفة والتعقيد والشيء الكثير من السياسة كما كان أدب روسو وفوليتر.

ويمتاز شعر العطار بجزالة العربية والدقة اللغوية، والنغمة البحترية، فهو في ذلك بارز بارع، أما إذا طلب منه غير ذلك فلن يعثر على الشيء الكثير لأن المعاني عنده قليلة والصور نادرة والأمثلة متباعدة متفرقة، لأنه لم يعتني بالعلوم الحديثة ولا الثقافة العامة، إنما كان همه أن يدرس كتب الأدب القديمة فقط، ولكن هذا الأسلوب صار في عصرنا غريباً بعد أن ضعفت اللغة عند الأدباء وبعد أن أصبح الأدب مهنة لاموهية كما يقول أحمد الجندي.

وفاته

في -٢٣- تموز ١٩٧٢ مات الشاعر أنور العطار دون أن يعرف به أحد فمرضه كان كأسلوبه الشعري هادئاً بسيطاً، أصيب جهازه الهضمي فأسرف في تناول الدواء وكان الداء من الدواء، فأصيب بأزمة توفي بعدها هادئاً مطمئناً كطبعه الخير وشعره الهادئ المطمئن.

ولم يطبع في حياته سوى ديوان في - ظلال الأيام- أما باقي دواونيه ومؤلفاته فبقيت محفوظة.



الإنسان والإبداع في تكوينه وخلقه مسألة أثارت اهتماماً وحيرة وإعجاباً وكثيراً من الغموض عند لفيف من العلماء دأبوا على دراسة الكون وكائناته.

فالجزء الأوسط من الجسم قد أنيط بمهام لو أن أياً من الدول رغبت في بناء معمل يؤدي كل المهام التي يقوم بها القلب أو تقوم بها المعدة والأمعاء والكليتان والكبد والرئتان لناهزت مساحته مساحة إحدى المدن الكبيرة كدمشق أو القاهرة أو موسكو على سبيل المثال، والدماغ - موطن العقل - ذاك الجزء الصغير والعجيب الذي يتحكم بدفة الجسم فيقوده إلى التهلكة أو النجاة، بفضله يمتلك الإنسان القدرة على استرجاع كل الأحداث وكل المواقف وكل الأمكنة التي مر بها بحيث أنه إن أراد حذفاً لأي من الذكريات المؤلمة فإنه لن يقوو على ذلك كونها قد أفسحت لنفسها مكاناً في ألواح أعماقه، لكنه يستطيع إقصاءها من ساحة شعوره لبعض من الوقت واسترجاعها في أوقات أخرى إن سَاءت له الرغبة، إلاَّ أنه وبسبب من الحب الجمّ للحياة فإن الإنسان قد تعود استرجاعاً للذكريات الحلوة التي تمر كأطياف في سمائه.

عملية التذكر تلك لن تتم إلاَّ بخلود المرء إلى نفسه وانزوائه عن كل ما يحيطه من ضجيج كأن يغوص في أعماق الطبيعة حيث الصمت المطبق إلاَّ من ذاك الضجيج المحبب لدى المرء والمتمثل بالفيديو كليبات التي تتقن أطيارها في عملية تقديمها للبشر بحيث يتذوقون من خلالها سكينة واسترسالا

في الخيال يعيش فيها الإنسان بعضاً من الوقت مع الذات فيستكشف مواطن القوة والضعف فيها، فالخلوة مع النفس تعيد للمرء كثير من التوازن العقلي وتجعله يبدل بعضاً من أنماط حياته وسلوكياته غير المستحبة.

كل البقاع على وجه البسيطة تعتبر أمكنة إلاَّ السجن الذي يقتلع الإنسان من جذوره فيلقي به في عالم يفتقد إلى الأمكنة، فالسجن إحياء لموت الإنسان والسجين ميتٌ وحي في آن واحد، ميتٌ لأنه يعتبر جثة بين الأحياء وحيٌّ لأنه يحاور موته ويشتم رائحته النتنة، فالذكريات بالنسبة إليه إما أن تكون قبل دخول السجن أو بعد انتهاء مدة العقوبة، بعد خروج الإنسان من السجن أول ما يتذكره بيت الطفولة وأولاد حارته وحبه الأول والبيت الجديد الذي انتقلت إليه العائلة، وحلم والده في إدخاله دار المعلمين كي يخفف عنه عبء إعالة الأسرة ومن ثم فصله من الدار والتحاقه بالجامعة وحصوله على تكليف لتدريس ساعات إضافية في الريف، منعه من التدريس وهجرته إلى الخارج والعودة إلى الوطن بالانزواء في مكان موحش راضياً - لانعدام الحيلة - براتب ضئيل لقاء عمله في التدريس مجدداً ونهيه عنه لاحقاً وانصرافه للعمل بالأجرة عند أحد كبار الملاكين في القرية وكثير غيرها من الذكريات.

إجماعٌ يوحد الخلق على وجه البسيطة في اعتبار السجن حاجزاً يمنع الأشرار من الإضرار بالخيِّرين، لكن كثيراً من البلدان تتسم نظمها الاجتماعية وقوانينها الوضعية بكثير من الغياب لميزان العدل فيها نتج عنه تعكير لصفو الحياة الإنسانية، فالمرء وزعماً من رغبته في صلاح مجتمعه إلاَّ أنه يظل عرضة الإلقاء في غياهب اللا مكان الذي أوجدت له قواميس اللغة مفهوم السجن بين مفرداتها مما يثير لدينا الشكوك في إمكانية أن يكون المساجين كلهم من المذنبين الذين يتوجب عقابهم؟!

السجن ذاك اللا مكان - الذي يشكل جدار فصل لا إنساني ولا حيواني بين السجين والحياة يتخذ في طبيعته شكلين:

أولهما يتمثل بإلقاء الذنب - حسبما تراه القوانين الوضعية - في العتمة وحصره بين زوايا أربع وإبقائه جسداً متحجراً ودماغاً جامداً يفتقد ملكة التفكير إلاَّ في أحيان قليلة حينما يفكر المسجون بساعة الصفر التي يتم فيها الإفراج عنه، وبما أن السجن يُعدُّ لا مكاناً كما أسلفنا، فإن القائمين على تدبير أموره قد قدموا أيضاً من عوالم تفتقد للأمكنة إذ أن انتفاء الأحاسيس الجميلة من قواميس حياتهم قد جعلهم مختلفين عن أولئك الذين يقطنون بقعة ما من كوكبنا الجميل، وبما أن الدين الحنيف قد كَرَّهَ إلينا لحم الخنزير لأسباب اقتنعنا بها وأدركنا أهميتها فإن نزلاء السجون في معظم أنحاء العالم الثالث يصنفون في درجة أقل مما عليه تلك الأنعام في اعتبارهم ساحة لإشباع كثير من النزعات الشريرة لدى السجانين خلافاً للبلدان الراقية التي ينتظر المتهم فيها محاكمة نزيهة تبرؤه أو تودعه السجن دون أن يتعرض لإذلال أو مهانة،

فالمجتمعات الراقية التي تصان فيها حقوق الخنازير وغيرها من الحيوانات من البديهي أن ينعم أهلها بدفء العلاقات الإنسانية والرقي لم يطلق عبثاً على تلك المجتمعات بسبب من الجهود التي تبذلها في إحقاق الإنسانية الإنسان وتحصينه من الشرور والأذى الذي يلحق به.

ثانيهما: سجن أشد وطأة يخرج عن إطار الجدران الإسمنتية السميكة والقضبان الفولاذية بحيث يترك المرء على الهامش مضعضعة عظامه لا يرتقي لأن يكون صفراً بين الأرقام، فالكفر يلاحقه إن هو نطق أو عبر عن كوامن نفسه والجلد من نصيبه إن هو أراد أو رفض، فالإرادة والرفض يمتلكهما من صنف في قائمة البشر فقط، فما دام غير منتم إلى أولئك البشر فإن مجرد وجوده بينهم لم يك إلاّ كرم أخلاق من قبل كثير من المجتمعات التي تتحكم بكل شيء يخصه حتى بأنفاسه، فالهواء لا يعبر رئتيه إلاّ بإذن منها، المرء في هذا النوع من السجون وكما أسلفنا ميت بين هياكل بشرية أو هو حي بين الأموات، إنه نكرة في هذا الوجود أو أنه كل شيء فيه.

أمر واحدٌ يحير صاحبي فلا يعرف له كنهاً، فما من أسباب أو دواع ألقت به في عالم سلبه القوة في أن يحب ويكره من يريد أو أن يرغب ما يشاء، فالأحاسيس المرهفة والرغبات قد فقدت لمعانها وبريقها بالنسبة إليه، لكنه يتذكر تماماً أنه حينما سئل ذات مرة في القطار الذي كان يلتهم المسافات إلى آسية الوسطى عمّا أتى به إلى تلك الأصقاع بأنه أجاب: أتيت أبحث عن سعادتي وحينما تابع محدثه مستفسراً عن الكيفية التي يرى فيها سعادته ببساطة: بيتاً يبعد عني غضب السماء وشرور الخلق وامرأة أضيع في ثناياها وأولاداً يملأون أرجاء البيت بزعيقهم وعملاً أجني من ورائه مالاً أنفق نصفه على حاجيات الأسرة والباقي في تكوين مملكة من الكتب أعتلي عرشها وأتنزه في حدائقها فينعشني شذى ورودها وتطربني سيمفونيات أطيارها.

المجتمعات النامية إذاً تضم خليتين من البشر، الأولى تنعت بالفضيلة ويسبغ على أفرادها كثير من الألقاب فيحصنون من دخول اللا مكان كونهم يمتلكون القدرة في اختراع القوانين وتصنيعها بالكيفية التي تتماشى مع مصالحهم بمعزل عمّا يشكلونه من تطفل على الحياة وإمعاناً في الهدم والتدمير والثانية يُصدَّر إلى أفرادها قوانين الخلية الأولى فيجبرون على قبولها وتنفيذها بحذافيرها.

التباين والتناقض واضح بين تلك الخليتين كما هو الخير نقيضاً للشر لكن شيئاً محيراً ينتاب المرء في عالمنا أنه ورغماً من تآكل شجرة البلدان النامية، فإن كثيراً من الخلق فيه قد امتلكوا القدرة في أن يخيروا من يشاؤون أو أن يلصقوا الإثم بالذين يرغبون؟!

تلك الإمكانيات الهائلة والخارقة قد حولت الحياة الإنسانية إلى غابة يسودها الأقوياء، فانقلبت المعايير وأصبح سلطان المال والنفوذ مصدراً لتشريعاتنا وملهماً لحيواتنا التي سيلحقها الأفول عاجلاً أم آجلاً، إن نحن رضينا الاستكانة والخنوع.




جرح العروبة..

شعر : نزار عبد الحميد علي

بغـــداد يـــا وجـــع القلـــوب
وحكايـــةَ الـــزمن العجـــيب
يـــا جـــرح أحمـــد والمـــسيح
ومـــا تخـــبأ فـــي الغـــيوب
الله أيـــن الله ممـــا قـــد
دهـــاك مـــن الكـــروب
مـــا بـــال دجلـــة والفـــرات
مـــروعين مـــن الخطـــوب
يتـــشاكيان مـــن الأذى
شـــكوى الكئـــيب إلـــى الكئـــيب
كـــيف النخـــيل علـــى ضـــفافـ
ـهمـــا وســـمَّار المغـــيب
مـــن قـــال تحريـــر الـــشعوب
يكـــون فـــي قـــتل الـــشعوب
هـــم يطفـــئون الـــصبح فـــي
عينـــيكِ يـــا نـــبض القلـــوب







القـــدس أخـــتك فـــي المـــصاب

وفـــي المواجـــع والنحـــيب

والحـــق حقـــك لـــن يمـــوت

مخـــبأ بـــين النـــيوب

هـــز العـــروبة عاصـــف

ضـــم البعـــيد إلـــى القـــريب

(جفلـــت لـــه الـــصحراء والـــتفت

الكثـــيب إلـــى الكثـــيب)

تلـــك الجـــراح الـــزاكيات

الـــنازفات دم الطـــيوب

فـــي وهجهـــا كـــون مـــن

الغـــضب المقـــدس واللهـــيب

بغـــداد يـــا شـــمسَ العـــروبة

والأصـــالة لا تغيبـــي

يـــا شـــهقة الطفـــل الجـــريح

علـــى الـــسرير بـــلا ذنـــوب

حـــرب علـــى الإنـــسان

دبـــرها سماســـرة الحـــروب

(نيـــرون) يـــا وحـــشا

حـــضاري المظاهـــر والعـــيوب

لا بـــدّ بعـــد الليـــل مـــن

إشـــراقة الفجـــر الـــرطيب

النـــصر حلفـــك يـــا عـــراق

فـــصن دمـــوعك يـــا حبيبـــي